نِعَــالٌ مِن رِيـــــح

ترجمة : إيمَان رياَح

مراجعة وتقديم : رفعت سلام؛

الطبعة الأولى،

دار

الجزائر ٢٠٠٢

هذا الكتاب هو الترجمة العربية

الأولى والكاملة لكتابي

Jean-Claude Villain,
Marchand d'Epices,
Editions Encres Vives, 2001;
Sept Chants de Relevailles,
Editions Encres Vives, 2001.

مقدمة المؤلف مكتوبةٌ خصيصاً لهذه الترجمة العربية

حقوق الطبع محفوظة

جان – كلود فيـــــلان

نِعَـــالٌ مِن رِيـــح

ترجمة : **إيمَـــــان ريَـــــاح**

مراجعة وتقديم : **رفعت سَـــــلاَّم**

شَاعرُ الضَّوءِ وَالأسَاطِير

٤

بقلم : **رفعت ســـلاَّم**

الشعر سيد الأسطورة. والأسطورة هي مادة الشعر الخام؛ بدونها يصبح الشعر نوعاً من النَّظم والهندسة العقلية الباردة، أو الفاترة؛ يفقد الشعر ماهيته الوجودية الحاسمة.

والشاعر – هنا – خالقُ الأساطير، الكونية والذاتية؛ فانتازيا الوجود الإنساني العميق، التي لا تستجيب لحسابات عقلانية أو منطق، سوى منطقها الخاص، الخارج على كل منطق. ولأنها كذلك، فهي تستعصي على الاستنفاد، على الاستهلاك، على العدم.

هكذا، يمكن للشاعر أن يعود إلى الأساطير القديمة، لا ليعيد سردها، أو إنتاجها؛ بل ليعيد اكتشافها وكشفها؛ بالتحديد: ليضيف إليها، ويسد ثغراتها التي عراها الزمن وعوامل التعرية الإنسانية؛ ليعيد خلقها من جديد أسطورةً جديدةً لم يعرفها التراث الإنساني من قبل، وإن عرف بعض عناصرها في أساطير سابقة.

لا فرق – في هذه الحالة – بين **الخلق** و**إعادة الخلق**، بما هما عمليتان إبداعيتان تشتركان في الجوهر، وتختلفان في "العَرَض"

أو "المظهر". و"استعارة" عناصر/ مفردات أسطورية غابرة لا يعني- هنا- الكثير؛ حيث "السياق"/ "البنية"/ "الكل"- الذي تندرج فيه هذه العناصر/ المفردات هو ما يموقعها، ما يمنحها الحضور والفاعلية والدلالة الجديدة، التي قد تغاير- إن لم تتناقض مع- الحضور والفاعلية والدلالة السابقة لها.

إنها- إذن- أسطورة جديدة، في مقابل الأسطورة القديمة، خلقها شاعرٌ لا يكتفي براهنه الزمني التاريخي؛ بل يمتلك بصيرةً لها القدرة على الدوران ٣٦٠ درجة في الأزمنة والتواريخ والثقافات، في الجغرافيات والمناخات والعوالم المرئية والمجهولة. بصيرة متعددة الطبقات الجيولوجية التي لا تنتهي، تسعى- باستماتة- لاكتشاف معنى وماهية الوجود الإنساني، بأي ثمن.

والأساطير الجديدة/ القديمة لا تبحث عن "البطل"، عن "بطولة" ما، عن "إنجازات" كبرى، هائلة؛ ولا تتمسح في "أحداث" تاريخية عُظمَى. إنها تسعى لاكتشاف ما تخفيه البطولة و"الإنجازات" الهائلة والأحداث "العُظمَى" من رموز وشخوص ولحظات هامشية، منسية، تجاهلها أو أهملها التأريخ والكَتَبَة (هل يُذكّرنا هذا النهج بما فعله "كفافي" اليوناني السكندري؟).

لكنها اللحظات التي تشكل جوهر الوجود الإنساني، أو- بالتحديد- إنسانيته العميقة، المختفية تحت غبار اللامبالاة أو النسيان أو الغيبوبة. لحظات الألم الدفين، الصامت أو

الأخرس؛ والوحدة الموحشة على شاطئ مهجور (حقيقي أو مجازي) في مواجهة انقضاء الزمن والخواء؛ والوعي الدفين بالعجز السِّرِّي عن مغالبة قوة عُظمَى ساحقة تقرر المصير، أو- في الغالب- تسحقه بلا رحمة؛

ذلك ما يقلب معنى وطبيعة "البطولة" رأسًا على عقب، أو يقدم "بطولةً" أخرى مناقضة. هي بطولةُ "الهامشي"، المُهمَل، المتواري عن النَّظَر، السِّري تقريبًا. بطولةٌ بلا إعلان أو أمجاد، دون نياشين أو أناشيد. بطولةٌ بلا بطولة، أو هي نقضٌ للبطولة، بحثًا عمَّا يسميه شاعرنا "**اللحظة الحقيقية**": "*سَاعَةُ العبْء العَبَثِّي للأَشْيَاء، وَقيمَتهَا العَارِيَة في النِّهَايَة، وَحَتَّميَّةَ الخَسَارَات؛ هي أَيْضًا سَاعَةُ الخَفَّة البَكْمَاء، وَالرَّحيلَ السَّهْل دُونَ لَمْلَمَة المَتَاع؛ سَاعَةٌ تُحَدِّدُ فيهَا الرِّيحُ- أَوْ مُجَرَّدُ نَسْمَة خَفيفَة أَحْيَانًا- وجْهَةَ المَجْهُول الَّتي نُسْلِمُ أَنْفُسَنَا إِلَيْهَا بِالغَريزَة، وَفي أَمَان*".

أنشُودةٌ هي للإنسان العابر في الزَّمن، منسيًّا، إلى الأَبد؛ لا يعرفه المؤرخون ولا رجالُ الحاشية ولا الباحثون في الكتب القديمة الصفراء. وهي- في نفس الوقت- أنشودةٌ للحظات الخوف الدفينة من نهاية الرحلة، من خاتمة المطاف، من الصمت الأخير بعد الغناء الحافل بالبهجة والنشوة، من عدم العثور على الكلمة التي طال البحث عنها، واستنفدت الحياة. وهي- مع ذلك- أنشُودةٌ للعثور على الذات الضائعة تحت ركام الصراعات العبثية، لكن الدموية القاتلة، أو خلالها، بعد

إهدارٍ طويل طويل. أُنشودةُ الشخص المتوحد مع ذاته، دون انعزالٍ عن العالم، ابتداءً من عناصره الأولى: الماء والنار والتراب والشجر والعصافير. شخص يقف على الشاطئ (شاطئ البحر، أم الحياة) يرقب الأمواج وقوافل السفن والبشر المارة المتعثرة المتكسرة. يتأملها بنظرة من يحمل في عقله آلاف السنين من التجربة الإنسانية، ويعرف البقية. لا يقولها؛ لكنه يعانيها في صمت أليم، أو ألم صامت نبيل، ويواصل العناد الإنساني- المثير للإعجاب والشفقة في آن- مع الحياة المتسربة من بين أصابعه العجوز.

ولا يصبح الشكل- في هذه الحالة- مهمًّا؛ لكن النصوص- رغم ذلك- تنتمي إلى بعض حالات "قصيدة النثر" الفرنسية، بالذات. فالجزء الأول يُذَكِّر بنصوص "***سأم باريس***" لبودلير، حيث الشخوص والسرد/ الحكي يهيمنان على النص الشعري، ليشبه النثري شبهًا خادعًا. نصوص مؤسسةٌ على الفانتازيا، والخيال الجامح أحيانًا، المتشابه أحيانًا مع خيال الموروث الأسطوري أو الشعبي، ولغة تكثف المشاعر المتضاربة، والخبرة الإنسانية العميقة؛ لا تنثرها أو تفرطها. لكن شخوص "فيلان" لا يرتعون في أجواء المدينة البودليرية بأضوائها الملونة ومهرجاناتها الصاخبة؛ فهم شخوص الحافة الجنوبية البحرية؛ يديرون ظهورهم للمدينة البودليرية وكل المدن الصاخبة، ووجوههم صوب البحر، والشمس الساطعة أبدًا، وسكينة الوجود الشاملة. شخوص متأملة، متألمة، تحدق في المصير ببصيرة مفتوحة على مصاريعها.

أما "**الأناشيد**"، فتقدم وجهًا آخرَ مغايرًا، لا مناقضًا، يُذكِّر القارئ العربي بتراثه الشعري القديم (ووريثه الحديث محمود درويش) الذي يعتمد "الخطابة" و"البلاغة". لكنه- موضوعيًّا، وثقافيًّا- يُذكِّرُ بنصوص "سان-جون بيرس"، أحد كبار شعراء القرن العشرين في فرنسا والعالم.. حيث الشاعر ينطق بلسان "التاريخ" في مواجهة "العالم"، بلا سرد أو تفاصيل أو حكي. هي الخبرة التاريخية المكثفة في لغة منسابة طيِّعة تستجيب لتحولات الفكرة متعددة الطبقات. يصبح النص "مخاطَبةً" ينطقها الشاعر- سيد الأساطير والحكمة- موجهةً إلى الآخر/ الآخرين، العالم الراهن، تكشف المخبوء، وتُعرِّي الزَّائف، وتحرض على الحب والحياة. وهي ليست صوتًا ذاتيًّا/ فرديًّا يعبر عن نفسه، بقدر ما هو صوت "الأنا" التي تختصر الـ"نحن" والـ"هُم" والـ"هُن"؛ أي تختصر جميع الأَصوات الجمعية التي لم تنطق من قبل فيما يشبه "ضميرًا كُلِّيًّا" تاريخيا، يستمد نبراته وجذوره من "سفر الأناشيد" و"الجامعة" وإلياذة وأوديسا هوميروس.. إلى "شكَاوى الفلاح الفصيح" الفرعونية إلى تعاليم حكماء آسيا الغابرين.

ولا تخفَى- في هذا الصوت- نبرةٌ رومانتيكية (هل مضَى زمنُها؟) تسري في ثناياه، تمنحه أحيانًا عذوبةً أصبحت نادرة. ليست نبرةَ "بُكاء على الأطلال"- التي تحاصر الشاعر وتحاصرنا أينما اتَّجهنا- بل نبرة أسًى شفيف على المصير الإنساني، وفَرَحٍ عارم بعُنفوان الطبيعة وجمالها، والابتهال إليها أينما اتجهت العينان.

نصوص تمثل شهادة مزدوجة على شاعر من هذا الزمان، وعلى الزمان نفسه؛ على حساسية شاعر لم تأكله "الأوروبية"، لم ينسحق أمامها- رغم انتمائه لواحدة من أعرق ثقافاتها- بقدر ما تمثَّل أرقَى منجزاتها "الإنسانية"، والإبداعية؛ فاستطاع أن يحمل الهم الإنساني الوجودي الذي يتجاوز الجغرافيا المحدودة والراهن الضيق.

وهي- في نفس الوقت- شهادة على الزمان، لا على أحداثه العابرة أو تحولاته الخارجية؛ بل على همومه الروحية العميقة؛ كأنها تأريخ للروح الإنساني في القرن العشرين المثخن بالجراح والآلام، وحلمٌ بتحقق إنساني يستعيد البهجة والفرَحَ الضائعين وسط الخرائب والأحزان الشاملة.

شهادة شعرية في زمن صعب.

الجزائر: ٢٠ أكتوبر ٢٠٠٢

تقديـــم

تسمح ترجمة المجموعتين الشعريتين "***تاجر البهارات***" و"***أناشيد الاقتبال السبع***"- اللتين تم ضمهما هنا تحت عنوان "***نعال من ريح***"- بمقاربة مميزة لعملي الشعري من قِبَل القارئ باللغة العربية. والحق أن القارئ باللغة العربيَة يمكنه أن يشعر أن عملي الشعري مألوف لديه، خاصةً على مستويي المعنَى اللذين سادا تركيبة هذه النصوص التي دمجت جوانب متميزةً من ثقافته الخاصة.

فمن الناحية الشكلية، تقدم قصائد النثر هذه (المسمَّاة حكايات شعرية، أو أناشيد، أو قصص-قصائد) فضاءً شعريًّا يميل أكثر إلى البقاء في الجانب الشفاهي. وهو ما يجعل النصوص- ببساطة واضحة- أكثر قابليةً للتقاسم بصورة آنية؛ وذلك ما يسهم- قبل كل شيء- في تطوير الكلمة التي، دون تجاهل أشكال الكتابة الحديثة، تحتفظ برابط مع التقليد والإيقاع والموسيقى والإلهام، وتحمل وتستحضر اللفظ بطريقة تعزيمية، إلى حد أن تصبح في بعض الأحيان سحراً، مذكرةً ببعض أشكال اللغة النبوية.

فالأمر يتعلق هنا بالمزاوجة- بطريقة ملائمة- بين مناخ وموضوع وأسلوب، بحثًاعن تجاوب القارئ المؤسس- في آن- على الإدراك الفكري والانفعال والحساسية. إن تصور "سان-جون بيرس" للقصيدة باعتبارها "جملةً طويلةً بلا قَطع" هو نفس تصوري. ويمكن أيضًا أن نفكر في ***أناشيد*** "إزرا باوند" وفي تكوين ***الأوديسَّا*** كأناشيد، أو أيضًا في الإلقاء الشعري العربي العظيم، تحفة الشفاهية، حيث عظمة القصيدة- بفعل بنائها ونَظْمِها وإيقاعها- تشارك في شكل مُدرَك و- من ناحية أخرى- في جمالية القصيدة، باعتبارها أداتها الدلالية الوحيدة الملائمة في التعبير عن غايتها.

وعلى مستوى المعنى، يمكننا القول إن "الموضوع الشرقي" هو السائد هنا، سواء تعلق الأمر بـــ"أناشيد الاقتبال السبع" المكتوبة- قبل كل شيء- بالإحالة إلى الصراع في الشرق الأوسط، وحيث يظهر العديد من المرجعيات المتوسطية؛ أو تعلق الأمر بـــ"تاجر البهاراتات"، حيث- كما في القصص الشرقي- تأتي مقتطفات القصة لترسم بورتريه شخصيةٍ ما وتطور موقفًا رمزيًّا يحمل المعنى، مثلما هو الحال في تراث الأمثال والأساطير. هكذا تكشف مثل هذه الشخصية سماتٍ داخليةً متفاقمةً في الوقت الذي يعاني الجسد أو يتضاءل بفعل نوعٍ من البتر أو العجز.

وذلك ما يدفعنا إلى التفكير في أن لغة الشعر– حتى لو كانت عالمية، بفعل الترجمة التي تمثل وسيط انتشارها المتعدد– وإذا ما كانت النماذج الأصلية التي يعرف الشاعر الإحساس بها وتوصيلها– مشتركة في كل الثقافات، فإن القارئ العربي– في تقديري– أقرب إلى العالم الماثل في هذا الكتاب من القارئ الأوروبي الذي كان السبَّاق إلى حيازة الكتاب.

هناك أيضاً، وأعترف– دون تجاوز– أن حالة الروح التي تحركني وتتحكم في خيالي، ومن ثم في عملي، هي– بالغريزة أم بالوراثة؟– أقرب للحساسية "الشرقية" التي أشعر أنها تغذيني. إنني أقترب منها بالفكر والحساسية والإلهام، وهي دائماً ما تنمو وتتعمق بفضل أصدقائي الكثيرين في الفضاء العربي الشاسع، والذين أود هنا أن أقدم لهم عرفاني وحبي.

جان–كلود فيلان
يوليو ٢٠٠٢

تاجر البهاراتات

١٦

أناشـــيد الجُزُر

(١)

أُسَارِع، وَالوَقْتُ مُبَكِّر؛ مَا يَزَالُ الآخَرُونَ يَغُطُّونَ فِي النَّوْم؛ إِنَّه وَقْتُ اخْتِرَاعِ النَّهَار، وَتَقْلِيصِ الخَسَائِر، وَاقْتِنَاصِ العُذُوبَةِ العَابِرَةِ لِلْفَجْرِ الوَلِيد؛ الآنَ يَنْتَظِمُ المَكَان، تَتَجَدَّدُ المَوَاثِيقُ بَيْنَ قُوَى الضَّوْءِ وَعُنْفُوَانِ الظَّلَام؛ حَاضِرٌ أَنَا كُلَّ صَبَاحٍ فِي هَذَا الاحْتِفَال؛ شَاهِدُهُ الوَحِيدُ المَقْبُولُ بِلاَ شَكٍّ بِحُكْمِ مُثَابَرَتِي؛ أَحفَظُ عَن ظَهْرِ قَلْبٍ طُقُوسَ هَذَا التَّحَوُّل، أَشْهَدُهُ فِي هَمْس، أَسْبِقُهُ أَحْيَانًا، أَو أُعَجِّلُ بِهِ، بِلُعْبَةٍ أَو مِن أَجْلِ مَصْلَحَتِي الْخَفِيَّة؛

ذَلِكَ قَبْلَ السَّاعَةِ الَّتِي تَظُنُّونَ، وَأَحْيَانًا بَعْدَهَا أَيْضًا؛ آه! أَعْرِفُ أَنَّنِي لَسْتُ الوَحِيد؛ نَحْنُ مَجْمُوعَةٌ صَغِيرَةٌ، مُنْعَزِلُونَ بِفِعْلِ الكَوْكَبِ، مَجْهُولُونَ حَتَّى عَن

أَنفُسنَا: عِنْدَ العَوْدَةِ من رِحلاتِ الصَّيْدِ اللَّيْلِي، هَـؤُلاَءِ الَّذِينَ يَأتُونَ إِلَى المَوَانِئِ قَبْلَ انطِفَاءِ المَنَارَاتِ؛ هَؤُلاَءِ السَّاهِرُون، فِي الجَبَلِ، فِي مَغَارَاتٍ نَدِيَّـةٍ يُحَرْسُـونَ السَّهْلَ؛ وأَيضًا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يَتَوَحَّدُونَ فِي الدُّعَاءِ بَعْـدَ أَن ضَخَّمَ اللَّيْلُ نَاقُوسَهُم الصَّغِيرَ المُلَوَّن؛

هِيَ فُرْصَةٌ وَاتَتْنَا جَمِيعًا فِي دُرُوبِنَا المُتَنَاقِضَـةِ، عِنْدَمَا تَنْهَارُ العَادَاتُ وتَزُولُ الحَوَاجِزُ؛ لاَبُدَّ أَنَّنَا أَيْضًا قَد ضَلَلْنَا الطَّرِيق، وَأَنَّ الرِّيحَ، الـرِّيحَ، قَـد أَطفَـأَت المِصْبَاحَ الأَخِير؛ كَأَنَّ الضَّلاَلَ يُقَرِّبُنَـا مِـنْ بَعْضِـنَا البَعْض، وَالخَطَرَ أَيْضًا، أَو تُقَرِّبُ بَيْنَنَـا أَحْيَانًـا يَـدُ مَحْتَضِرٍ فِي السَّاعَةِ البَارِدَةِ؛ تِلْكَ إِذَن اللَّحْظَةُ الحَقِيقِيَّة، نَتَعَجَّلُهَا، نَستَشْعِرُهَا فَجْأَة؛ فِيهَـا تَغْـرَورِقُ العَيْنَـان، وَتَذْوِي الأَوْهَام؛ هِيَ سَاعَةُ العِبْءِ العَبَثِـيِّ لِلأَشْـيَاء، وَقِيمَتُهَا العَارِيَةِ فِي النِّهَايَة، وَحَتْمِيَّةِ الخَسَارَات؛ هِـيَ أَيْضًا سَاعَةُ الخِفَّةِ البَكْمَاء، وَالرَّحِيلِ السَّهْلِ دُونَ لَمْلَمَةِ المَتَاع؛ سَاعَةٌ تُحَدِّدُ فِيهَا الرِّيحُ- أَو مُجَرَّدُ نَسْمَةٍ خَفِيفَةٍ أَحْيَانًا- وِجْهَةَ المَجْهُولِ الَّتِـي نُسْـلِمُ أَنفُسَـنَا إِلَيْهَـا بِالغَرِيزَةِ، وَفِي أَمَان.

(٢)

كَمَا لَو فِي حُلْمٍ غَرِيب، كُنْتُ أَسْكُنُ مَنْزِلاً عَالِيًــا قُرْبَ البَحْر؛ مِن شُرفَتِه، كَانَت عَيْنَايَ تَــرفُّانِ كُــلَّ صَبَاحٍ فِي زَيغِ الشَّمْسِ البَازِغَة، صَامِدًا بِفَخْرٍ وَجْهًــا لِوَجْه؛

فِيمَا بَعْد، جَلَسْتُ عَلَى حَافَّةِ حَائِطِ مَطْلِي، تَحُفُّــه وُرُودٌ صَفْرَاء، وَأَجَلْتُ النَّظَرَ فِي المَقَابِرِ وَاحِدًا وَاحِدًا فِي مَدفَنٍ بَحْرِيٍّ ذِي مِسَلَّاتٍ مَنْقُوشَةٍ بِكِتَابَةٍ غَرِيبَــة؛ الأَطْفَالُ الصَّاخِبُونَ جَــاءُوا لِيُحَيُّــونَنِي بِضَــحِكَاتِهِم، سَاخِرِينَ أَحْيَانًا مِن هَيْئَتِي، غَيْرِ المَأْلُوفَــةِ فِــي هَــذَا المَكَان؛ قَبْلَ الظُّهْرِ، نَزَلْتُ إِلَى المِينَاءِ لأُقَابِلَ صَــدِيقًا كَثِيرًا مَا كُنْتُ أَرَاهُ فِي هَذِهِ النَّاحِيَة؛ أَعطَــانِي صَــيَّادٌ سَمَكَتَيْن، وَالمَرْأَةُ العَجُوزُ– الَّتِي تَرْعَى بَيْتِي بِلاَ نُطْق– طَهَتْهُمَا بِأَعْشَابٍ زَكِيَّة؛

فِي الهَوَاءِ الطَّلْقِ الَّذِي كَانَت تَرْمِيهِ عَلَيَّ الـــرِّيحُ الهَشَّة، فَاجَأْتُ هُنَا وَطْأَةَ الأَبَدِيَّةَ الَّتِـــي تُحْصِـــي كُـــلَّ سَاعَة.

(٣)

فَجْأَةً أَخَذَتْنِي الرَّوَائِحُ القَوِيَّةُ لِلْبَهَارَاتِ وَالقَــذَارَةِ، وَعَادَتْ إِلَيَّ ذِكْرَيَاتُ حُشُودٍ مِنَ النَّاسِ يُهَمْهِمُونَ، مُدُنٍ تَزْخَرُ أَرصِفَتُهَا بِالأَجْنَاسِ، شَغَبِ الجَوْعَى، وَصَــخَبِ أَطْفَالٍ هَائِجِينَ، وَفِي جَسَدِي اسْتِدْعَاءٌ لِخُدُوشٍ، لِجِرَاحِ عَجَائِزَ مَرْضَى، أَو ضَغْطٍ لَيِّنٍ لِلاسْــتِدَارَاتِ المَبْلُولَــةِ لِلنِّسَاءِ؛ ضَوْضَاءُ؛

عَائِدًا مِنَ البَحْرِ كَأَرِيجِ الجُزُرِ، اجتَــاحَتْنِي مِــن جَدِيدٍ رَغَبَاتُ المَنْفَى وَالقَدَرِ، كَوَابِيسُ قَوْقَعَاتٍ مَفْتُوحَةٍ وَأَشْرِعَةٍ مُمَزَّقَةٍ، هَــوَاجِسُ عَوَاصِــفَ بِــلاَ مَــأْوَى، مَخَاوِفُ اصْطِدَامِ سَفِينَتَيْنِ وَعَطَشٌ لِمَاءٍ فَاتِرٍ آسِنٍ فِــي قَاعٍ قَرِبٍ عَتِيقَةٍ؛ أَمِيلُ إِلَى المُغَامَرَاتِ ذَاتِ المَخَــاطِرِ غَيْرِ المَحْسُوبَةِ، وَاللِّقَاءَاتِ غَيْرِ المُنْتَظَرَةِ؛ وَالمُعَاشَرَاتِ المُرِيبَةِ فِي أَعْمَاقِ فَنَــادِقَ مَشْــبُوهَةٍ حَيْــثُ يَعِــيشُ الحَرَافِيشُ؛

مَصْفُوفَةً عَلَى الأَرصِفَةِ، سُفُنٌ تَفْرِغُ حَمُولاَتِهَا؛ فِي مُوَاجَهَتِهَا تَمْتَلِئُ دَكَاكِينُ مُبَرْقَشَةٌ؛ أُحِبُّ هَذَا الاكْتِفَاءَ المُثَابِرَ؛ هَذَا الفَيْضَ الفَظَّ: تِجَارَاتٌ صَغِيرَةٌ تَحْلُمُ بِثَرَوَاتٍ كَبِيرَةٍ، مِلاَحَةُ سَوَاحِلَ تَهْفُو إِلَى رِحْلاَتٍ بَحْرِيَّةٍ فِي أَعَالِي البِحَارِ، وَهَؤُلاَءِ الرِّجَالُ الأَحْرَارُ الَّذِينَ يَنَامُونَ فِي المَسَاءِ فَوْقَ حَاجِزِ أَمْوَاجٍ عِنْدَمَا أَسْتَحْوِذُ عَلَى نِسَائِهِمِ اللاَّئِي يَسْتَقْبِلْنَ العَابِرَ وَعَلَى شِفَاهِهِنَّ البَرَاءَةُ؛

يَعُودُ إِلَيَّ أَيْضًا حَنِينُ طَوَّافِ أَعْيَادِ الفِصْحِ فِي الصَّبَاحَاتِ السَّاكِنَةِ لِجُزُرِ السِّيكلاَدِ، لِحَفَاوَةِ اسْتِقْبَالٍ بَكْمَاءَ فِي الأَدْيِرَةِ المُنْعَزِلَةِ، وَلِلنُّزُهَاتِ البَارِدَةِ فِي البَيَاضِ القَادِمِ لِلْفَجْرِ؛

حَقًّا، لاَ شَيءَ فِي أَثَرِ سَفِينَةٍ مُبْحِرَةٍ لاَ تَعُود؛ مَعَ ذَلِكَ تَنْسَاقُ عَصَافِيرٌ بَيْضَاءُ طَوِيلاً وَرَاءَ صَوَارِي سُفُنٍ لَم تَعُد تُطْلَى.

(٤)

هُنَا، أَو رُبَّمَا أَبْعَدَ قَلِيلاً عَلَى ضِفَّةٍ أُخْرَى، سَأَذْهَبُ إِلَى الأَسْوَاقِ أُتَاجِرُ فِي البُهَارَاتِ وَالتَّوَابِلِ؛ جَالِسًا عَلَى حَصِيرَةٍ مَبسُوطَةٍ عَلَى الأَرْضِ حَيْثُ أَعْرِضُ سِلَعِي، كُنْتُ أُحْصِي دَرَاهِمَ مَبِيعَاتِي غَيْرِ المُؤَكَّدَةِ؛ كُنْتُ أَرضَخُ إِلاَّ قَلِيلاً لِلْمُسَاوَمَاتِ، وَلاَ أُوَافِقُ عَلَى المُقَايَضَةِ إِلاَّ لِلضَّرُورَةِ المُلِحَّةِ؛ أَقْبَلُ بِالأَمَاكِنِ الرَّدِيئَةِ الَّتِي تَحْمِلُ عَلاَمَةَ خَطَرِ الدُّخُولِ، وَأَتَحَمَّلُ نَهْبَ العِصَابَاتِ القَاتِلِ كَنَوْعٍ مِنَ الْضَرِيبَةِ؛ وَبِذَلِكَ سَأَعِيشُ، أَشِيخُ، عَلَى الهَامِشِ؛ رُبَّمَا سَيَكُونُ رَفِيقِي بَبَّغَاءُ أَبْكَمُ تُلْفِتُ أَلْوَانُهُ الأَنْظَارَ؛ كَانَ الرِّجَالُ يَسْتَخِفُّونَ بِتِجَارَتِي، وَيَسْتَهْزِئُ الأَطْفَالُ، بَعْضُهُم يَقُومُ بِحَرَكَاتٍ فَظَّةٍ أَو يُكَشِّرُونَ فِي وَجْهِي، وَاثِقِينَ مِن سُكُوتِي لِمُجَرَّدِ غُمُوضِ عَيْنَيَّ البَسِيطِ.

النِّسَاءُ وَحْدَهُنَّ كُنَّ يَقِفْنَ أَمَامَ أَلْوَانِ وَبَرِيقِ مَعْرُوضَاتِي المُتَوَاضِعَةِ؛ كُنَّ يُغَمْغِمْنَ، يُقَارِنَّ، يَتَسَاءَلْنَ، يَسْتَشِرْنَ بَعْضَهُنَّ بَعْضًا دُونَ اهْتِمَامٍ بِي؛ كُنْتُ أُحِبُّ رُؤْيَتَهُنَّ؛ أُفَتِّشُ فِي عُيُونِهِنَّ الهَارِبَةِ، أُخَمِّنُ

أَعْمَارَهُنَّ، وَأَتَخَيَّلُ أَجْسَادَهُنَّ الطَّرِيَّةَ تَحْتَ أَثْوَابِهِنَّ الفَضْفَاضَةِ؛ كُنْتُ أَنْتَظِرُ بِصَبْرٍ اخْتِيَارَهُنَّ أَو رَحِيلَهُنَّ، دُونَ سَبَبٍ أَو نَتِيجَةٍ؛ أَحْيَانًا كَانَت وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ- تَبْدُو طَائِشَةً- تَلْمَسُ بِخُبْثٍ مَسَاحِيقِي بِإِصْبَعٍ خَاطِفٍ، تُقَرِّبُ مِن أَنْفِهَا، مِن شَفَتَيْهَا، بَعْضَ الحُبَيْبَاتِ الدَّقِيقَةِ ذَاتِ اللَّوْنِ العِطْرِي؛ كُنْتُ أَتَرَقَّبُ- بَعْدَ ذَلِكَ- اشْمِئْزَازَهَا أَو ابتِسَامَتَهَا؛

بَعْدَ رَحِيلِ الجَمِيعِ، كُنْتُ أَبْقَى سَاكِنًا مُدَّةً طَوِيلَةً فِي المَكَانِ الَّذِي أَصْبَحَ مَهْجُورًا؛ وَإِذ أَفْتَحُ الكِتَابَ المُغَطَّى بِالحَرِيرِ الَّذِي أَسْتَخْدِمُه كَدَفْتَرٍ، كُنْتُ أَكْتُبُ بَعْضَ كَلِمَاتِ النَّهَارِ، شِعْرًا رُبَّمَا؛ فِيمَا بَعْدُ، فِي المَسَاءِ، أَو أَحْيَانًا فِي الغَدِ، كُنْتُ أَقْرَأُهَا- فِي الطَّرِيقِ المُغْلَقِ- لِصَبِيَّةٍ صَغِيرَةٍ بِلاَ اسْمٍ، تُصْغِي إِلَيَّ بِلاَ سُؤَالٍ.

(٥)

كَانَ يُرِيدُ أَن يَكْتُبَ قِصتَّهَا: كَانَ جَزِيرَتَهَا، وَكَانَت هِيَ إِشْرَاقَتَه؛ لَقَد جَاءَ إِلَى هُنَا مِن أَجْلِ ذَلِك؛ وَهُوَ يُحَدِّقُ فِي البَحْرِ، كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ بِإِمْكَانِه الاسْتِغْرَاقَ فِي ذَاتِه، وَاحْتِمَالَ كُلِّ هَذِه الشَّمْسِ الَّتِي كَانَت تُخْطِئُ جَبِينَه؛ لاَ، نُقْطَةً هَائِجَةً كَانَ المَاء؛ تُلِحُّ الأَمْوَاجُ عَلَيْهِ بِالتَّأْكِيد، بَل تُغْوِيه، وَكَانَ ذَلِكَ أَفْضَلَ بِكَثِير؛

كَانَ لاَبُدَّ أَن يَكْتُبَ رَغْمَ ذَلِك، أَن يَدْخُلَ أَعْمَاقَ نَفْسِه، أَن يَعْتَصِرَ قَلْبَ الرِّيشَةِ حَتَّى الانْفِجَار؛ لاَ الاكْتِفَاءَ بِلُقًى بَسِيطَةٍ وَاعِدَةٍ كَالَّتِي كَانَت تُوَاتِيه فِي المَاضِي، فِي الفَجْرِ أَحْيَانًا أَو مَعَ المَسَاء: كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ الآنَ، فَلاَ مَآلَ لَهَا سِوَى مُجَرَّدِ تَنْهِيدَة؛

السَّاعَةُ لَم تَعُد صَبَاحِيَّة، كَانَ يَقُولُ لِنَفْسِه، وَهَا أَنَا أَرِثُ- فِي النِّهَايَة- أَرِثُ كُلَّ أَرَقِي؛

كَانَ الآنَ ضَجِرًا، مُتْعَبًا حَتَّى المَوْت؛ لاَ نِسَاءَ لَدَيْهِ وَلاَ أَطْفَال؛ هُوَ نَفْسُهُ كَانَ يَتَحَوَّلُ إِلَى شَخْصٍ آخَرَ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ الشِّتْوِيَّةِ عِنْدَمَا كَانَ قَلْبُهُ يَغِيب: أَلَم تَكُن

تَصاَّعَدُ دَاخِلَه- كُلَّ مسَاءٍ- رِعْشَةٌ وَالشَّمْسُ تَغُوصُ فِي المِيَاه؛

سَأَمْضِي، كَانَ يَقُولُ لِنَفْسه- سَأَمْضِي لأَخْتَــرِعَ طَرِيقًا آخَر؛ فَهَذَا الطَّرِيقُ يُضَلِّلُنِي؛ فَاليَوْمَ أَمِيلُ إِلَــى البَنَاتِ عَنِ الأُمَّهَات، أَهْذِي، وَبِالكَادِ أَسْــتَطِيعُ الإِبْقَــاءَ عَلَى نَارِي؛ هَل انْطَفَأَتْ جَمْرَةُ الكَــلاَم؛ هَــل مَــاتَ الأَصْدِقَاءُ الصَّامِتُون؛

الآنَ يَتَهَجَّى الأَلْفَاظَ الجَامِدَة؛ فِيمَا بَعْد كَانَ يَأْمَــلُ أَن يَجِدَ صَدَاهَا فِي صَرْخَةِ القُبَّرَة؛ هَل سَيَعُودُ الــنَّغَمُ المُقَدَّسُ الَّذِي كَانَت تُصْدِرُه- فِي المَاضِــي- النَّايَــاتُ لِهَدْهَدَةِ السَّاعَات؛

لاَ يَهُم؛ فَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ دَائِمًا مَا يَبْدَأُ غِيَابٌ مَا.

(٦)

رُبَّمَا كَانَ عَلَيْهِ أَن يَعُودَ إِلَى بَيْتِه، أَن يَكُفَّ عَن التَّعَلُّقِ بِالمَنَاظِرِ الطَّبِيعِيَّة، أَن يَتْرُكَ نَفْسَهُ لِلرِّمَالِ السَّاخِنَةِ وَزَبَدِ الأَمْوَاج، أَن يَهْرُبَ مِنَ الإِغْوَاءِ اللاَّنِهَائِيِّ لِلأَمَاكِن، وَأَن يُفَضِّلَ الطَّاوِلَةَ وَالوَرَقَةَ البَيْضَاء- وَاليَدُ تُمْسِكُ بِالرِّيشَة؛ يَقْدَحُ زِنَادَ فِكْرِه، ذِكْرَيَاتٌ تَشْتَعِلُ، كَلِمَاتٌ تَبْحَثُ عَن ذَاتِهَا- فِي تَأَمُّلِ البَحْرِ وَمُدَاعَبَاتِ النَّسِيمِ لِجَسَدِه العَارِي، فِي تَهْلِيلَةِ الصَّيْف، فِي الانْحِرَافَاتِ العَفْوِيَّةِ الَّتِي تُرَافِقُ الأَرْجَحَةَ البَطِيئَةَ لِشِرَاعٍ مَا، هُنَاكَ بَيْنَ السَّاحِلِ وَالجَزِيرَة؛

وَإِذْ يَسْتَرْجِعُ آنِئذٍ تَعَالِيمَهُ القَدِيمَة، يُصْبِحُ عَلَيْهِ- إِنْكَارًا وَمُجَاهَدَةً لِلذَّاتِ- أَنْ يُخْرِسَ أَحَاسِيسَهُ المُسْتَبْشِرَةَ بِاللِّقَاحِ الجَدِيد، وَأَنْ يُرَاهِنَ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى الكَلِمَات، لِيُقَدِّمَ- فِي نَعِيمِ البَهَاءِ البَحْرِيِّ- خُلُودَ الأَثَرِ، وَالكَلاَمَ، بِلاَ جَدْوَى بِالتَّأْكِيد، وَضَعِيفًا أَيْضًا، لَكِنَّه رَغْمَ ذَلِكَ لاَ يُقْهَر؛

وَفِي هَذَا الاخْتِيَارِ، تَدْفَعُهُ اللاَّمُبَالاَةُ بِحَيَاةٍ مُغْتَبِطَةٍ- بِالغَرِيزَةِ- نَحْوَ صَمْتٍ مُتَوَاطِئٍ مَعَ أَنْفَاسٍ بَطِيئَةٍ، مُتَزَامِنَةٍ مَعَ النَّشْوَة.

حكايَــاتٌ شِعريَّــة

بَقُبولِ العَابِرِ- يَقُول- ابْتَنَيْتُ فِي الــزَّمَن
مَا هُوَ أَكْثَرُ رُسُــوخًا مِمَّــا يَنْحَــلُّ دُونَ أَن

يَدْرِي، وَهوَ يَظُنُّ أَنَّه مُمْسِكٌ بِالزَّمَن؛ فِي شُرُودِي أَقَمْتُ بَيْتِيَ الدَّاخِلِيَّ، أَكْثَرَ صَلَابَةً مِمَّا نَبْنِي، مُسَيَّجًا وَمُزَخْرَفًا. وَهوَ لاَ يُهَدِّدُنِي بِالانْهِيَار.

بَنَّاءُوا المَاضِي مَاتُوا، وَنُسِيَتْ وَانْهَارَتْ قِلاَعُهُم وَعُرُوشُهُمْ وَأَرْوِقَتُهُم. اليَوْمَ، مَا نَزَالُ نَعْرِفُ الاسْمَ وَكَلِمَاتِ بَعْضِ العُقَلاَء.

صَبَــاح

كُلَّ صبَاحٍ، فِي نَفْسِ السَّاعَةِ، بِنَفْسِ العَادَةِ، كَـانَ يَجْلِسُ لِلكِتَابَةِ؛ وَرَغْمَ ذَلِك، فَلَم يَنْطِقْ حَرْفًا وَلَم يَخُـط سَطْرًا طُوَالَ الشِّتَاء؛ الرَّبِيعُ سَيَكُونُ مُلاَئِمًا، فَالضَّـوْءُ سَيُعِيدُ لِي الكَلاَم، كَمَا كَانَ يَظُن؛ فَمِن أَيْنَ تَأتِي الكَلِمَاتُ إِلاَّ مِن عَيْنٍ فَرِحَةٍ بِالشَّمْسِ؛ اليَدُ عَلَى الجَبِينِ، وَلاَ يَفْقِدُ الأَمَلَ: يُفَتِّشُ، يُلِح، لَكِنَّهَا تَأْتِي بِصُعُوبَةٍ؛ فِي الحَقِيقَةِ، لاَ تَأْتِي؛ هِيَ دَائِمًا بِئْرٌ مِنَ الرِّمَالِ يَحْفُرُه: جُدْرَانُهُ تَنْحَـلُّ وَقَاعُهُ يَخُور؛ أَهُنَاكَ- عَلَى الأَقَلِّ- مَاءٌ مَالِحٌ أَو عَذْبٌ تُنْبِئُ بِوُجُودِه طَبَقَةٌ رَطْبَةٌ؛ يَرَى فِي مَجْرَى يَنْبُوعٍ خَاوٍ أُنْبُوبًا مِنَ الرَّصَاصِ، يَسْمَعُ صَدَاهُ؛ صُورَةٌ سَهْلَةٌ- كَانَ يَقُولُ لِنَفْسِه- لَكِنَّهَا الوَحِيدَةُ الَّتِي تَحْضُرُه الآن؛

يَتَنَفَّس؛ يَتَنَهَّد؛ أَو بِـالأَحْرَى يُنَـادِي، إِذ لاَبُـدَّ لِلصَّرْخَةِ مِنَ الهَوَاء؛ فَقَدَ الكَلِمَات؛ أَو المَوْهِبَة، ذَلِـكَ الخَيْطَ الثَّمِينَ مِنَ الكَلِمَات؛ تَبْقَى مُلْتَفَّةً حَوْلَ نَفْسِهَا فِي مَكَامِنِهَا فِي أُفُولِ هَذَا الفَصْل، مَلاَجِئَ لِمَلَـلٍ هَـادِئ، لِرَاحَةٍ مُخَدَّرَة، وَنُعَاسٍ جَامِد؛ بِبُطْءٍ يَتَهَجَّـى أَلْفَاظًـا، وَبِالصُّدْفَةِ يُتَمْتِمُ بِأَسْمَاءٍ قَدِيمَةٍ اخْتَرَعَهَـا أَو تَـذَكَّرَهَا؛ يُلَمْلِمُ أَبْجَدِيَّةَ رُمُوزٍ غَرِيبَة؛ فِي المَاضِـي كَـانَ هَـذَا

الطَّقْسُ يَحْمِلُ إِلَى شَفَتَيْهِ تَعْوِيذَةً سَهْلَة، يُهْدِي إِلَى يَدَيْهِ فَاتِحَةَ كِتَابٍ جَمِيلَةً تَكْبُرُ فِيمَا بَعْدُ بِمَقَاطِعَ غِنَائِيَّةٍ مَدِيدَة؛ أَلاَ يُغَيِّرُ السَّاحِرُ العَالَمَ بِصِيَاغَاتٍ بَسِيطَة؛

اليَوْمَ بَدَأَ يَعْتَرِفُ أَنَّ النَّهَارَ لَم يَعُد بَاذِخًا؛ أَعَلَيْهِ أَن يَنْتَظِرَ إِلْهَامًا مُفَاجِئًا، أَو هِبَةً غَيْرَ مُنْتَظَرَة؛ وَهَل سَيَتَكَلَّمُ بِلُغَاتٍ إِذَا مَا وَاتَاهُ العَقْل؛ الكَلِمَاتُ عَصِيَّةٌ دَائِمًا، فَهَل طَالَ المَوْسِم؛ أَهوَ العُمْرُ وَقُصُورُه الذَّاتِيُّ المَاكِر؛ أَم هُوَ صَدْعٌ لاَ يَشُكُّ فِيه، إِعْيَاءٌ خَفِيٌّ يُفْلِتُ مِن يَقَظَتِه؛ لِلْحَقِّ فَهوَ يَسْتَشْعِرُ صَمْتًا مَدِيدًا: لاَ البَتَلاَتُ النَّدِيَّةُ وَلاَ العَصَافِيرُ الصَّدَّاحَةُ يُمْكِنُ أَن تُخَفِّفَ مِنْه؛ رُبَّمَا اقْتَرَبَ بِالفِعْلِ مِن حَوَافِّ الفَرَاغ، هُنَاكَ حَيْثُ تَنْغَلِقُ الأَفْوَاهُ وَيَسُودُ العَدَم؛ سَرْدُ الحَيَاة؛ تِلْكَ هِيَ الأَهْدَابُ الحَقِيقِيَّةُ لِلأَشْيَاء؛ وَهَذَا الصَّمْتُ المَدِيدُ أَهوَ عُطْلَةٌ نِهَائِيَّة، بَوَاكِيرُ غِيَابٍ أَخِير؛

يُغَمْغِمُ فِي خُفُوتٍ بِبَعْضِ الأَسْمَاء، لأَمَاكِنَ مَأْهُولَة، لأَشْخَاصٍ أَعِزَّاء؛ يُرَدِّدُهَا؛ لَكِنَّ تَنْغِيمَهَا كَانَ يَكْشِفُ الطَّرِيقَ المَسْدُود، وَيُصْبِحُ شَارَةَ تَوَقُّفٍ نِهَائِي؛ فَهَل سَيَدْفَعُهُ الشَّلَلُ إِلَى مُغَادَرَةِ الجَمَاعَة، إِلَى السُّقُوطِ

فِي الهَاوِيَة؛ لَقَد رَاوَدَه هَذَا الحُلْمُ فِي المَاضِـــي عَلَـــى حَافَّةِ طَرِيقٍ تُوسكَانِيَّة؛ وَيُدْرِكُ اليَوْمَ أَنَّه لَم يَتْرُكْه أَبَدَا؛

الَّذِي كَانَ يُدَاعِبُ الحَصَى*وَيُفَكِّرُ فِي شَاعِرِ "إِيل"
الَّذِي كَانَ يَقُـــولُ إِذ **الأَمْلَسَ لِيْكتُبَ عَلَيْه؛ فِي الآخَرِ صَمَتَ فِي مَنْفَى الصَّحْرَاء: *أَحْسَنْتَ صُنْعًا بِالرَّحِيـــل*؛ أَيُنْبِئُ مَنْفَى الصَّوْتِ بِالارْتِحَالَاتِ الأَخِيرَة، أَلَابُدَّ مِـــن نِسْيَانِه مِن أَجْلِ الصَّدَى؛ هَذَا التَّأَمُّلُ يُعَزِّيه عَن صَمْتِه؛ بِالتَّأْكِيدِ هُوَ حُر، يُمْكِنُه الانْطِلَاق؛ أَلاَ يَمْتَلِكُ الآنَ نِعَالاً مِن رِيح.

---

* إشارة إلى الشاعر الفرنسي "**رونيه شار**" الذي وُلد في مدينة Isle-sur-la-Sorgue، وهو الذي قال عن "رامبو": *أحسنتَ صُنعًا بالرَّحيل*".

** الآخر: "رامبو".

زُهُــور السَّــوسَن

إِلَى محمَّد خَدة

يُطِلُّ منَ النَّافذَة إلَى مَـا وَرَاءَ جِـدَارِ الحَديقَـة؛ الأَشْجَارُ مَا تَزَالُ فِي ازْدِهَارِهَا؛ رغْمَ ذَلكَ فَلَـم تَعُـدْ عَيْنَاهُ تَتَأَمَّلاَن بَيَاضَ البَتَلاَت، لَمْ يَعُـدْ يَتَأَمَّـلُ عَـوْدَةَ الثِّمَارِ وَاحْتِمَالاَتِهَا كَمَا فِي الأَعْوَامِ المَاضِيَة، لَمْ يَعُـدْ قَلْبُهُ يَتَأَثَّرُ بِالأَشْيَاءِ البَسِيطَة؛ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يَرَى الأُفْـقَ بَعْدَ الآن، وَأَنَّ العَالَمَ المَرْئِيَّ يَنْحَصِرُ مِـنَ الآنِ فِـي جُدْرَانِ غُرْفَتِه؛ وَلَم يَبْقَ لَهُ سِوَى الرُّضُوخ؛ آه! بِالطَّبْعِ يَسْتَمِرُّ كُلُّ شَيءٍ فِي الخَارِجِ: فَالزُّوَّارُ شَاهِدُونَ عَلَـى ذَلكَ كُلَّ يَوْم؛ يَعِيشُ الحَيَاةَ دَائِمًـا، وَالأُمُـورُ تَأْخُـذُ مَجْرَاهَا مِثْلَمَا الأَنْهَارُ وَالنُّقُود، النِّسَاءُ جَمِـيلاَتٌ (إِنَّـهُ الرَّبِيع) وَالأَطْفَالُ يَضْحَكُون؛ لاَ يُهِمُّ- كَمَا يَعْرِفُ- أَنَّ الجَمِيعَ يَكْذِبُون، وَلاَ يَزَالُ يَجِدُ القُوَّةَ لِقَوْلِ ذَلك؛ إِنَّهُم لاَ يَسْمَعُونَ، أَتَعْلَمُ أَنَّهُ مَرِيضٌ لِلغَايَة؛ إِنَّهُ عَجُـوزٌ الآن؛ أَنْتَ كَذَلِكَ تَجِدُهُ غَرِيبَ الأَطْوَارِ؛ لاَ لَم يَكُنْ يَوْمًا هَكَذَا أَبَدًا؛

لَم يَكُنْ يَوْمًا هَكَذَا؛ يَعْرِفُ ذَلك؛ يُحِسُّ بِه؛ وَيَقُولُهُ أَيْضًا؛ يَتَذَكَّرُ عِنْدَمَا كَانَ عُمْرُهُ عَشْرَ سَنَوَات، لَم يَكُـنْ

يُحبُّ القَصَص، لَم يُحبْ أَبَدًا القَصَص، لَـمْ يَتَـذَكَّرْهَا يَوْمًا، البَاقِي نَعَم، أَمَّا هِيَ فَلاَ، لَم يُجِدْ يَوْمًا سَرْدَهَا وَلاَ اخْتِرَاعَهَا؛

إِنَّهُ يَقُولُ لَهُم، يُكَرِّرُ لَهُم؛ كُلُّ شَيءٍ يَكْذِب؛ إِنَّـهُ يَهْذِي، الجَمِيعُ يَكْذِبُون؛ يُطِلُّ مِنَ النَّافِذَةِ إِلَى مَـا وَرَاءَ جِدَارِ الحَدِيقَة؛ وَحَيْثُ يَتَمَدَّدُ عَلَى السَّرِيرِ لاَ يَرَى سِوَى خَطِّهِ غَيْرِ المُنْتَظِمِ فِي مُوَاجَهَةِ السَّمَاءِ الَّتِـي تَعْبُرُهَـا سَحَابَاتُ أَبْرِيل؛ عَالَمٌ آخَر يَبْدَأُ هُنَاك- يُفَكِّرُ؛ وَكُنْـتُ أَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ حَتَّى وَقْتٍ قَرِيب؛ وَلَم أَكُن أَعْلَمُ أَنَّـهُ العَالَمُ الآخَر، لاَ يَقُولُ شَيْئًا، يَنْظُرُ دَائِمًا؛ هُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ لَم يَعُدْ مَوْجُودًا بِالفِعْل، أَنَّهُ ضَائِع؛ فَنَظَرَاتُهُ كَثِيرًا مَـا تَكُونُ ثَابِتَةً رَغْمَ أَنَّ عَيْنَيْهِ كَثِيرًا مَا تَـذْرِفَانِ الـدُّمُوعَ عِنْدَمَا يَدْنُو الأَطْفَالُ بِرُؤُوسِهِم مِن يَدَيْه؛

لَقَد جَعَلَهُم يَأْتُونَ لَهُ بِبَاقَةٍ مِنْ زُهُورِ السَّوْسَنِ الَّتِي تُهَدْهِدُ أَسَاسَ الجِدَار، إِنَّهَـا رَوْعَتُـهُ الأَخِيـرَة؛ هَـلْ سَيَحْتَمِلُ حَتَّى مَايُو عِنْدَمَا يَسْبَحُ اليَابَانِيُّونَ- كَمَا يَعْرِفُ ذَلِكَ دَائِمًا- فِي هَذِهِ الوَرْدَة؛ فِـي صَـمْتٍ يَتَسَـاءَل، يَعْتَصِرُ بَعْضَ البَتَلاَتِ بَـيْنَ أَصَـابِعِهِ الَّتِـي تَلَوَّنَـت

بِالبَنَفْسَجِي؛ لَقَد قَامَ بِالطَّقْس، فَيُمْكِنُهُ الآنَ أَنْ يَأْمُلَ فِـــي فُرْصَةٍ مُتَأَخِّرَة؛ مَع ذَلِكَ، يَعْرِفُ الآنَ- دُونَ أَنْ يَقُولَ- أَنَّهُ فِي هَذَا العَامِ لَن يَرَى أَزْهَارَ الهِلْيُوتروب.

مَوتُ شَـــاعِر

شَاعِرٌ مَاتَ دُونَ أَن نَدْرِي؛ فَهَلْ لَمْلَمَ أَوْرَاقَ آخِرِ كِتَابٍ لَه، وكَتَبَ قَصِيدَةً أَخِيرَةً، وَاسْتَكْمَلَ رَائِعَةً غَيْرَ مُتَوَقَّعَةٍ، أَمْ أَنَّهُ صَمَتَ مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ، كَاتِمًا بِذَلِكَ صَوْتَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا، مَغْلِقًا اسْمَهُ بِالصَّمْتِ دَاخِلَ مَقْبَرَةِ الأَيَّامِ وَالأَعْوَامِ، هَلْ كَانَت مُنْهَكَةً سِلْسِلَةُ الذِّكْرَيَاتِ، تِلْكَ الَّتِي نَسْتَحْضِرُهَا دَائِمًا لِنَرْصُدَ كُلَّ مَرَّةٍ الأَجْزَاءَ النَّاقِصَةَ؛ أَمْ أَنَّهُ قَدَّمَ دَلاَئِلَ كَثِيرَةً عَلَى حَيَاةٍ مِنْ أَجْلِ الفِرَاقِ مَعَ المَوْتِ؛ رُبَّمَا تَخَلَّى عَنْهُ أَصْدِقَاؤُهُ وَاحِدًا وَاحِدًا، هَؤُلاَءِ الَّذِينَ لاَ يَحْمِلُونَ اليَوْمَ سِوَى ذِكْرَاه؛

بِالتَّأْكِيدِ مَا تَزَالُ هُنَاكَ ظُنُونٌ أُخْرَى: تَخَيَّلُوا مَثَلاً جَرَّةً مُفْتَرَضَةً تَفِرُّ مِنْهَا قَصَائِدُهُ مِنْ بَيْنِ رَمَادِ جُثْمَانِه؛ وَصَبِيَّةٌ صَغِيرَةٌ بِكَمَاءُ تُؤْوِيهَا فِي انْتِظَارِ تَعْوِيذَةِ حِفْظٍ تَدْفِنُهَا أَوْ تُعِيدُ بَعْثَهَا؛ يُمْكِنُنَا أَيْضًا أَن نَمْنَحَ لِلْمَجْهُولِ دَوْرًا آخَرَ، عَامًّا وَصَاخِبًا، ثَرْثَارًا وَمُبَعْثَرًا، يَخْلِطُ فِيهِ الكَلِمَاتِ وَالأَشْيَاء، وَيُعْطِيهَا أَسْمَاءً أُخْرَى، فِي أَمَاكِنَ أُخْرَى، عَائِدًا مِن ظَهْرِ الأَشْيَاءِ إِلَى وَجْهِهَا، فَتِيًّا بَعْدَ مَا كَانَ عَجُوزًا، مُسْرِفًا بَعْدَ التَّقْتِيرِ، مُذِيبًا فِي الفُجُورِ

بُلُّورَاتِ الجُمُودِ فِي دَمِه؛ لَكِنْ هَلْ سَيَكُونُ عَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ آنَئِذٍ؛ أَلَن تَكُونَ المَنِيَّةُ قَد وَافَتْهُ بِالفِعْلِ وَإِلَى الأَبَدِ؛

أَتَذَكَّرُ الآنَ؛ قَرَأْتُ فِي المَاضِي قِصَّةَ رَجُلٍ قَضَى حَيَاتَهُ كُلَّهَا فِي الْبَحْثِ عَنِ اسْمٍ يَجْعَلُ مِنْهُ مَسْكَنًا لَه؛ عِنْدَمَا صَارَ عَجُوزًا وَأَعْمَى كَانَ يَجْعَلُ الآخَرِينَ يَقْرَأُونَ لَهُ كُتُبًا وَيَتْلُونَ عَلَيْهِ مَعَاجِمَ، وَاثِقًا مِنْ أَنَّ الكَلِمَةَ مَوْجُودَةٌ، وَأَنَّهُ سَيَنْتَهِي إِلَى مُقَابَلَتِهَا؛ وَإِلَى مَنْ كَانُوا يَسْخَرُونَ مِنْهُ مُعْتَبِرِينَ إِصْرَارَهُ عَلَامَةً عَلَى جُنُونٍ مُتَزَايِد؛ كَذَلِكَ إِلَى مَنْ كَانُوا يَنْصَحُونَهُ فِي صَبْرٍ بِالتَّخَلِّي، فَارِضِينَ عَلَيْهِ الاعْتِرَافَ بِالْوَاقِعِ فِي النِّهَايَةِ وَبِتَفَاهَةِ مَسْعَاهُ الغَرِيب، كَانَ يَقُولُ إِنَّهُ يُمْكِنُ العَيْشُ، نَعَم، مِنْ أَجْلِ كَلِمَةٍ وَاحِدَة، وَعَلَى الإِيمَانِ بِكَلِمَةٍ نَجْهَلُهَا؛ تَحْكِي القِصَّةُ أَيْضًا أَنَّهُ صَارَ كَئِيبًا، وَانْتَابَتْهُ الشُّكُوكُ، فَصَرَفَ عَنْهُ قُرَّاءَهُ القَلَائِلَ، مُؤَكِّدًا فِيمَا بَعْدُ- بِصَوْتٍ صَارَ وَاهِيًا- أَنَّهُ قَدْ أَخْطَأَ، وَأَنَّ الكَلِمَاتِ لاَ وُجُودَ لَهَا خَارِجَ أَفْوَاهِ مَنْ يَنْطِقُونَ بِهَا؛ قَالَ بِالتَّالِي إِنَّ الكُتُبَ تَخْدَعُ وَإِنَّ الاخْتِرَاعَ وَاجِب؛ هُوَ لَم يَعْرِفْ ذَلِك؛

إِنَّهُ مِنَ النُّجُومِ الزَّائِفَةِ الَّتِي تُضَلِّلُ عُلَمَاءَ الفَلَك، وَمِنَ النَّيَازِكِ المُتَهَاوِيَةِ الَّتِي تَجْعَلُ أَكْثَرَ الرَّاجِلِينَ حِنْكَةً بِلاَ حِيلَةٍ؛ هَكَذَا تَكُونُ الكَلِمَةُ إِذَن المَوْتَ الَّذِي يُخْفِي مَجَالَه؛ أَلاَ تُؤَدِّي الكِتَابَةُ إِلاَّ إِلَى الشَّكِّ وَالبَلاَء، أَمْ هِيَ أَيْضًا صَمْتٌ بَهِيجٌ، هِجْرَانٌ دُونَ نَبْرَةِ يَأْس؛ شَاعِرٌ مَاتَ دُونَ أَنْ نَدْرِي.

الرَّسَّامُ العَجُوز

يَتَعشَّى بِالسَّرْدِينِ وَيَرَى بِالكَادِ الأَشْيَاءَ العَادِيَّــةَ؛ بِأَصَابِعِه المُتَلَمِّسَةِ يَعْثُرُ بِصُعُوبَةٍ عَلَى الأَشْيَاءِ المَأْلُوفَةِ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا فِي حَيَاتِه؛ لاَ تُوجَدُ الأَشْيَاءُ- يَقُــولُ- تِلْكَ الأَشْيَاءُ السَّابِقَةُ الَّتِي أَبْحَثُ عَنْهَا؛ أَشْــيَاءُ الأَمْــسِ الَّتِي غَيَّرَت مَجْرَاهَا؛ وَتَعْبُرُ يَدُهُ فِي بَعْــضِ الأَحْيَــانِ جَبِينَهُ بِحَرَكَةِ غَيْظٍ؛ النَّفَسُ بَطِيءٌ لَكِنَّهُ لاَ يَسْعَلُ عَلَــى طَرِيقَةِ أُولَئِكَ العَجَائِزِ المُخَرِّفِينَ الَّذِينَ يَبْصُقُونَ فِيمَــا بَيْنَهُم نَفْسَ القَصَصِ الغَبِيَّةِ؛ لَدَيْهِ نَظْرَةٌ رَقِيقَةٌ، مُلَحَّــةٌ أَحْيَانًا، نَظْرَةُ الحُكَمَاءِ ذَوِي السَّعَادَةِ المُتَوَاضِعَةِ الَّــذِينَ يَتَقَدَّمُونَ نَحْوَ المَوْتِ وَعَلَى شِفَاهِهِم ابتِسَامَةٌ رَصِــينَةٌ؛ بِخُطْوَةِ خَرْقَاءَ، يُرَسِّخُ نَوْعًا مِنَ التَّرَفُّعِ الفَرِيــدِ كَــانَ أَصْدِقَاؤُهُ يُحِبُّونَهُ فِي المَاضِي؛ وَفِي حَفَــاوَةِ الضِّــيَافَةِ الَّتِي يَمْنَحُهَا لِلزُّوَّارِ، يَمْتَلِكُ السَّكِينَةَ المَحْبُوبَــةَ لِمَــنْ يَمْلِكُونَ الْوَقْتَ؛

لَم تَعُدْ عَيْنَاهُ تَرَيَانِ جَيِّدًا؛ وَمِنْ يَدَيْهِ المُجَعَّــدَتَيْنِ تَهْرُبُ الأَشْيَاءُ؛ لَكِنَّهُ- رَغْمَ ذَلِكَ- يَرْسُمُ، يُوَاصِلُ فِــي العُمْرِ لَوْحَةً كَانَ قَدْ بَدَأَهَا مُنْذُ وَقْتٍ بَعِيدٍ؛ عَــالَمٌ قَــدِيمٌ يَصْعَدُ شَيْئًا فَشَيْئًا كُلَّ يَوْمٍ عَلَى قُمَاشِ اللَّوْحَةِ، كَتِلْــكَ

المُدُنِ المَغْمُورَةِ الَّتي تَنْبَثِقُ كَسَرَابٍ أَمَامَ السَّائِرِينَ فِي الصَّحرَاءِ؛ مَا تَزَالُ الحَرَكَةُ وَاثِقَةَ الخَطِّ، دَقِيقَةَ اللَّمْسَةِ؛ يُؤَلِّفُ أَمَامَ اللَّوْحَةِ مِثْلَ مُوسِيقِيٍّ أَصَمَّ يَسْمَعُ عَلَى قِمَطْرِهِ الرَّنِينَ غَيْرَ المَسْمُوعِ، الكُونْشِيرْتُو الصَّامِتَ؛ وَنَظَرُهُ مُوَجَّهٌ إِلَى أَعْمَاقِهِ، يَزُورُ بِلاَ مِصْبَاحٍ أَرْوِقَةَ المَاضِي، الغُرَفَ البَيْضَاءَ وَالسَّوْدَاءَ لِلذَّاكِرَةِ؛

وَالعُمْرُ لَمْ يَسْتَنْزِفْ عَيْنَهُ الأَكْثَرَ وَفَاءً مِنْ عَيْنَيْهِ؛
العَالَمُ جَمِيلٌ- يَقُولُ بِرِقَّةٍ- ثُمَّ فِي هَمْهَمَةٍ: لَدَيْنَا عُيُونٌ كَيْ نَرَى؛ بِالقُرْبِ مِنْهُ شَابٌّ مُخْلِصٌ يَرْعَاهُ؛ يَصْمُتُ مِنَ التَّعَاسَةِ؛ لاَ يَسْعَدُ بِشَبَابٍ نَافِدِ الصَّبْرِ؛ كُلَّ يَوْمٍ يَتَأَمَّلُ بِلاَ كَلِمَاتٍ بَدَاهَةَ نَفْسِ الدَّرْسِ: أَنَّهُ يَرَى أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ يَرَى؛

الرَّسَّامُ أَوْرَثَهُ رِيشَاتِهِ المُنْهَكَةَ وَحَامِلَ أَلْوَانِهِ
العَجُوزُ؛ وَهُوَ يَتَرَدَّدُ- حَتَّى الآنَ- فِي اسْتِعْمَالِهَا.

التمثَــالُ الأَكتَــع

جَالِسٌ هَذَا المَسَاءَ فِي مُوَاجَهَةِ الشَّمْسِ الَّتِي تَغْرُبُ فِي البَحْرِ؛ عَلَى طَرَفِ ذِرَاعِهِ المَمْدُودَةِ يَرَى فِي النُّورِ المُعَاكِسِ رَاحَةَ يَدِهِ اليُمْنَى، وَأَصَابِعَهُ الخَمْسَةَ مَفْرُودَةً؛ لاَ، لاَ يَبْحَثُ عَنْ ظِلٍّ لِنَظْرَتِهِ، لاَ يَخْشَى الزَّيْغَ وَالحُرْقَةَ: عَيْنَاهُ المُجَعَّدَتَانِ رَأَتَا الكَثِيرَ مِنْ قَبْلُ، جِلْدُهُ جَافٌّ، مُجَعَّدٌ أَيْضًا، وَأَسْمَرُ مِنْ نَقْعِ المَاءِ وَالمِلْحِ وَالضَّوْءِ؛ يَلْعَبُ بِيَدِهِ بِكُلِّ بَسَاطَةٍ، مُحَرِّكًا مِنَ الأَعْلَى إِلَى الأَسْفَلِ، مِنَ اليَسَارِ إِلَى اليَمِينِ عُضْوَهُ البَطِيءَ كَمَنْ يُصَوِّبُ عَلَى فَرِيسَتِهِ، أَو كَكَاهِنٍ فِي التَّرْسِيمِ؛ لِحَرَكَتِهِ المَرْفُوعَةِ رَشَاقَةُ الرَّاقِصِ تَارَةً وَعُنْفُوَانُ المُمَثِّلِ الَّذِي كَانَ فِي المَاضِي فِي المُدُنِ البَعِيدَةِ تَارَةً أُخْرَى (كَانَ لَدَيْهِ وَقْتَهَا صَوْتٌ وَإِيمَاءَاتُ المِهْنَةِ)؛ إِنَّهُ يَلْعَبُ، ذِرَاعُهُ تَقُومُ بِإِشَارَةٍ جَدِيدَةٍ، نِدَاءٍ رُبَّمَا (لَكِن مَنْ يُمْكِنُ أَنْ يَفْهَمَهَا هُنَا أَو حَتَّى يَرَاهَا)، أَو يَحْتَجُّ عَلَى عُنْفِ فَظٍّ، كَمَا فِي مَحَافِلِ المَاضِي؛ كَانَ يَلْمَسُ مَجْدًا مُمْكِنًا، مُلْكًا خَاضِعًا، حَتَّى لَو كَانَت أَصَابِعُهُ المَقْبُوضَةُ فِي غَالِبِ الأَحْيَانِ تُغَلِّفُ القَبْضَةَ؛

الآنَ يَتَسَلَّى بِالحَرَكَةِ غَيْرِ المُدْرَكَةِ لأَنَامِله، حَيْثُ تَرْتَدُّ الأَشِعَّةُ مِثْلَمَا عَلَى أَشْوَاكٍ رَخْوَةٍ؛ يَضْبِطُ المُرَشِّحَ الَّذِي تُهْدِيهِ لِعَيْنَيْهِ؛ مَنْ يَرَاهُ عَنْ بُعْدٍ يَظُنُّ حَرَكَتَهُ تَحِيَّةً، عَلاَمَةَ تَرْحِيبٍ، أَوْ دَعْوَةً مَرْفُوقَةً بِصَرْخَةٍ ضَائِعَةٍ فِي البَعِيدِ؛ أَمْ- بِالأَحْرَى عِنْدَمَا يَنْثَنِي المِرْفَقُ وَتَلْتَصِقُ الأَصَابِعُ- سَيَتَّخِذُ لِوَهْلَةٍ وَضْعَ تِمْثَالٍ أَكْتَعَ يَرْقَى إِلَى تَعْوِيذَةٍ لِهُرُوبِ الشَّمْسِ الشَّفَقِيِّ؛

فِي الْحَقِّ، الأَمْرُ أَبْسَطُ مِنْ ذَلِك؛ فَهُوَ لاَ يُفَكِّرُ فِي كُلِّ هَذِهِ الصُّوَرِ الَّتِي لاَ يُمْكِنُ لأَحَدٍ أَنْ يَرَاهَا؛ إِنَّهُ يَلْعَبُ؛ كَطِفْلٍ فِي المَهْدِ يَسْتَكْشِفُ يَدَيْهِ طَوِيلاً؛ أَوْ بِالأَحْرَى يُرِيدُ أَنْ يَقْرَأَ فِي كَفِّهِ خُطُوطَ حَيَاتِهِ الَّتِي هَدْهَدَتْهَا ذَاتَ يَوْمٍ الأَظَافِرُ السَّوْدَاءُ لِغَجَرِيَّةٍ؛ أَنْ يَسْتَعِيدَ المَاضِي؛ أَنْ يَهْجِسَ بِالمُسْتَقْبَلِ؛ إِنَّهُ يَبْحَثُ بِشَفَافِيَةٍ كَمَا لَو كَانَتْ يَدُهُ مِن زُجَاجٍ وَتَسْمَحُ لَه بِأَنْ يَرَى دَمَهُ، أَوْ كَمَا لَو كَانَتْ مِرْآةً تَكْشِفُ لَهُ مَا لَم يَعُدْ يَرَاهُ مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ- وَجْهَهُ المُضِيءَ؛

يَعْتَقِدُ الآنَ أَنَّ أَصَابِعَهُ المَفْرُودَةَ تُشَكِّلُ نَجْمَةً ذَاتَ خَمْسِ زَوَايَا؛ نَجْمَةً أُخْرَى فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ يَبْحَثُ عَن

اسْمٍ لأُولَى نُجُومِ اللَّيْلِ، تِلْكَ الطَّائِشَةِ الَّتِي تَتَجَرَّأُ عَلَـــى المُجَازَفَةِ بِنَفْسِهَا أَمَامَ الشَّمْسِ الغَارِبَة.

الكَاتِبُ الأَبْـــكَم

يُصَدِّقُ البَعْضُ الأُسْطُورَةَ الرَّائِجَةَ عَنِّي، الَّتِي لاَ أَدْرِي مِنْ أَيْنَ جَاءَت؛ فَلِلْخُضُوعِ لِبَعْضِ القُوَى الغَيْبِيَّةِ، أَوْ لِهَاجِسٍ مُلِحٍّ أَو نُبُوءَةِ وَحْيٍ، يُقَالُ أَنَّهُم قَطَعُوا لِسَانِي مُنْذُ صِغَرِي؛ وَالمُشْكِلَةُ أَنَّ صَمْتِي مُحَيِّر، مُسْتَفِزٌّ فِي أَغْلَبِ الأَحْيَانِ؛ كَمْ نُحِبُّ الأَسْرَارَ بِقَدْرِ مَا نَخْشَاهَا: الْمُؤَكَّدُ أَنَّنَا جَمِيعًا نَحْتَاجُ إِلَيْهَا، لَكِنَّهَا يُمْكِنُ أَيْضًا أَن تَكُونَ قَاتِلَةً؛ ذَلِكَ، بِلاَ شَكٍّ، هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ أَحَدًا لَم يُغَامِرْ بِزِيَارَةِ فَمِي، وَإِخْضَاعِي لاسْتِجْوَابٍ بِالتَّعْذِيبِ لِكَشْفِ الأَسْرَارِ، وَإِجْبَارِي عَلَى مُكَابَدَةِ مِحْنَةِ الحَقِيقَةِ الَّتِي تُبَدِّدُ الوَهْمَ بِمُجَرَّدِ مُلاَحَظَةٍ بَسِيطَةٍ، وَتَضَعُ الخُرَافَةَ فِي مُوَاجَهَةِ أَكْثَرِ الشِّهَادَاتِ وَاقِعِيَّةً؛ لاَ، لاَ يُغَامِرُونَ بِذَلِكَ؛ إِنَّهُمْ يَحْتَرِمُونَنِي، أَوْ بِالأَحْرَى يَخْشَوْنَنِي؛ لاَ يَعْلَمُونَ أَيَّ شَيءٍ يَرْبِطُنِي بِالقُوَى الصَّامِتَةِ، ذَلِكَ الوَجْهِ الآخَرِ لِلأَشْيَاءِ الَّذِي يَتَخَلَّى عَنْهُ النَّاسُ فِي الشَّمْسِ فَيَلْتَقُونَ بِهِ فِي النَّوْمِ؛ وَهَبُونِي مِيثَاقًا غَامِضًا، مَسَارَّةً غَيْرَ مُؤَكَّدَةٍ، قَدَرَ الأَمَاكِنِ، أُحِبُّ هَذِهِ الأَقَاوِيلَ؛ يُحَافِظُونَ عَلَى المَسَافَةِ؛ وَبِبَسَاطَةٍ، بِفِعْلِ

صَمْتِي، يَنْدَفِقُ دَاخِلِي بِوُضُوحٍ يُنْبُوعٌ يَرْتَوِي مِنْهُ كُلُّ لِسَانٍ؛ وَإِذَا مَا لَعَقْتُ فِي السِّرِّ هَذَا المَاءَ الدَّاخِلِيَّ الَّذِي لاَ يَصِلُ أَبَدًا إِلَى الشِّفَاه، وَلَو فِي مُجَرَّدِ هَمْهَمَة؛ آه، لَو كَانَ البُكْمُ يَعْلَمُون؛

وَ بِالنِّسْبَةِ لِي، أَنَا الَّذِي يَعْلَمُ، فَالأَشْيَاءُ أَكْثَرُ بَسَاطَة؛ فَلَدَيَّ لِسَان، صَحِيحٌ أَنَّهُ سَاكِنٌ وَعَاجِزٌ، عَضَلَةٌ لُعَابِيَّةٌ تُنَدِّي فَمِيَ الجَاف؛ لَقَد أَذْعَنْتُ لِهَذِهِ الحَالَةِ مُنْذُ الطُّفُولَةِ حَيْثُ لَم يَكُنْ لَدَيَّ سِوَى أَلْعَابٍ مُنْعَزِلَة، وَأَحْلاَمٍ لاَ تَنْتَهِي؛ كُنْتُ آنَئِذٍ أَسْمَعُ ضَحِكَاتِ الآخَرِينَ وَشِجَارَهُم بِلاَ مُبَالاَة؛ كَانَ لَدَيَّ الوَقْتُ كُلُّه لِتَوْسِيعِ نَظْرَتِي، لِمُلاَحَظَةِ مَا لاَ يَرَوْنَهُ بِصَبْر.

ذَاتَ يَوْم، فِي المَكَانِ الَّذِي كُنْتُ أَجْلِسُ فِيهِ دَائِمًا، مَرَّ **السَّيِّدُ** وَحَاشِيَتُه؛ وَبَيْنَمَا كَانَ الآخَرُونَ يُهَلِّلُونَ لَه، أُعْجِبَ أَكْثَرَ بِسُكُوتِي الصَّامِت؛ وَإِذْ حَدَسَ بِمَعْرِفَتِي وَفِطْنَتِي المُبَكِّرَةِ حَوْلَ المَوْضُوعَاتِ الَّتِي تَهْرُبُ فِي العَادَةِ مِنَ الآخَرِين، أَخَذَنِي إِلَى جَنَاحِه، أَسْكَنَنِي قَصْرَه وَمَنَحَنِي مَكَانَةً بَيْنَ ذَوِيه؛ وَمُبَكِّرًا كُلَّ صَبَاحٍ، فِي السَّاعَةِ الَّتِي لاَ تَكُونُ فِيهَا الشَّمْسُ حَارِقَةً، كَانَ عَجُوزٌ

يَأتِيني لِيُعَلِّمَني حُرُوفَ لُغَته، وَعَلَّمَني إمْسَاكَ القَلَم؛ ولِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ كُنْتُ أَتَدَرَّبُ عَلَى الرُّمُوزِ الصَّعْبَة، عَلَى الإشَارَاتِ النَّادِرَةِ الَّتي تَتَطَلَّبُهَا الكَلِمَاتُ المَهْجُورَة؛ كُنْتُ أَقْضِي بَقِيَّةَ النَّهَارِ فِي الظِّلِّ قُرْبَ النَّهْرِ، مُتَأَمِّلاً التَّيَّارَ الَّذي يَجْرِفُ قَوَافِلَ النَّاس، وَالأَحْجَارَ وَالبَضَائِع؛ اعْتَرَفَ العَجُوزُ لِي بِامْتِيَازِ خُطُوطِي، المُطَابِقَةِ لِرِقَّةِ المَخْطُوطَاتِ القَدِيمَةِ الَّتي كَانَ يُرِيهَا لِي أَحْيَانًا فِي مَكْتَبَةِ القَصْر؛ عَيَّنَنِي خَطَّاطًا وَبَاحَ لِي بِبَعْضِ الأَسْرَارِ الَّتِي كَانَ يَنْتَظِرُ مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ فُرْصَةَ البَوْحِ بِهَا، أَسْرَارٍ كُنْتُ قَدْ أَحْسَسْتُ بِهَا مِنْ قَبْل.

مَاتَ العَجُوز، فَأَصْبَحْتُ بِالتَّالِي خَطَّاطَ سَيِّدِي، وَتَعَلَّمْتُ مِنْهُ فِي الحَالِ الحِسَابَاتِ وَالمُشَاجَرَات، الدَّسَائِسَ وَالعِشْق؛ وَإِذْ وَثِقَ فِي صَمْتِي لَمْ يَعُدْ يُبَالِي بِالبَحْثِ عَنْ أَفْكَارِي فِي عَيْنَي؛ هَكَذَا كُنْتُ أَتْبَعُهُ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى المَسَاء، مُمْسِكًا بِالأَرْشِيفِ السِّرِّي، كُنْتُ أَعْمَلُ وَحْدِي مُتْلِفًا بِتَفَانٍ كُلَّ مَا كَانَ يَأْمُرُنِي بِإِتْلَافِه؛ كُنْتُ أَدْرِكُ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَخْصٍ آخَرَ ثَمَنَ الصَّمْتِ وَقِيمَتَه.

أَدْرَكَتْنِي الشَّيْخُوخَة؛ وَذَاتَ يَوْمٍ أَحْضَرُوا شَـابًّا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ أُعَلِّمَه؛ بَدَأْتُ مَعَهُ مُنْذُ السَّاعَةِ الأُولَى مِنَ النَّهَارِ، تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي كُنْتُ مُعْتَادًا عَلَى التَّسَكُّعِ فِيهَا، كَظِلٍّ فِي وَاحَةِ نَخِيلٍ مَهْجُورَة؛ كَانَ لَهُ لِسَانٌ يَسْتَعْمِلُه، يَطْرَحُ الأَسْئِلَةَ، وَيَتَعَجَّب؛ وَإِذْ يَنْفَدُ صَبْرُه، كَانَ يَثُـورُ مِنْ صَمْتِي الهَادِئ، مِنْ خَرَسِي؛ سرْعَانَ مَا بَرَعَ فِـي الخُطُوطِ المُرْهَفَةِ وَالسُّطُورِ المُنْسَابَةِ النَّادِرَة؛ أَعْتَـرِفُ بِذَلِك؛ أَصْبَحْنَا مُتَكَافِئَيْن؛ أَجْبَرُوهُ عِنْدَئِذٍ عَلَى الاخْتِيَار: أَنْ يُصْبِحَ الخَطَّاطَ شَرْطَ أَنْ يَقْبَلَ قَطْعَ لِسَـانِه- أَوْ أَنْ يَلْتَحِقَ بِزُمْرَةِ المُحَاسِـبِينَ الصِّـغَارِ وَالسِّـكِرْتَارِيَة، المُكَلَّفِينَ- فِي دَهَالِيزِ القَصْـرِ المُظْلِمَـةِ- بِسِـجِلَّاتِ التَّوَابِل؛ قَبِلَ بِالتَّضْحِيَة؛ رَأَيْتُ الشَّفْرَةَ البَـارِدَةَ تَقْطَـعُ لِسَانًا كَانَ يُحَاوِلُ مَنْعَهَا؛ وَامْتَلأَ فَمُـهُ بِالـدَّمِ وَعَيْنَـاهُ بِالدُّمُوع؛

الآنَ لَمْ تَعُدْ لِي وَظِيفَةٌ مُلْزِمَة؛ فِي آخِرِ مَا بَعْـدَ الظَّهِيرَة، وَجَدُونِي فِي المَعْبَد، حَيْثُ يَمْـنَحُ وَضْـعِيَ السَّاكِنُ لِمَنْ يَرَانِي مِنَ المُخْلِصِين- عَلَى مَا يَقُولُـون- سَكِينَةً كَبِيرَة؛ بَل إِنَّ البَعْضَ مِنْهُم يَظُـنُّ أَنَّـهُ يَـرَى

تِمْثَالِي؛ وَعَنِّيَ- فِيمَا يَزْعُمُــونَ- ظَهَــرَت أَسَــاطِيرُ
أُخْرَى؛ لاَ أُبَالِي بِسَمَاعِهَا.

المُومِيَــاء

لَمْ تُدْفَن، مُحَنَّطَةً مُنْذُ آلاَفِ السِّنِين، فِي أَقْصَى الغُرْفَةِ السِّرِّيَّةِ لأَحَدِ الأَهْرَامَات؛ تَرَدَّدَ عَلَيْهَا المُحْتَالُونَ وَالعُلَمَاء؛ لَم تَعُدْ تَرْتَاحُ فِي مَثْوَى الأَمْوَات، لَكِنَّهَا تَنَامُ صَامِتَةً وَمُسْتَسْلِمَةً لانْتِظَارٍ هَادِئ؛

فَارِعَةُ القَامَةِ، وَلَهِيْئَتِهَا الرِّقَّةُ المُرْهَفَةُ للسُّلاَلاَت الَّتِي انْحَدَرَتْ مِنْهَا؛ شَابَّةٌ، أَمْ عَجُوزُ رَغَبَاتٍ مُجْهَضَة، عَجُوزُ أَيَّامٍ لَم تَعِشْهَا، وَأَحْلاَمٍ لَم تُحَقِّقْهَا، جَسَدُهَا مُغَطًّى بِلَفَائِفَ تَمْنَعُهَا مِنَ القَفْزِ وَالرَّكْضِ، مِنَ الوَثْبِ وَالرَّقْصِ، بِالكَادِ تَسْمَحُ بِأَنْ تَلْمَحَ عَيْنَيْهَا؛

صَمَّمْتُ عَلَى نَزْعِ هَذِهِ الأَوْشِحَةِ المُعْتَصِرَة، عَلَى تَحَدِّي دَوَافِعِ حَبْسِهَا، مُقَدَّسَةً كَانَت أَمْ مُدَنَّسَةً، وَتَحْرِيرِ جَسَدِهَا المُسَمَّرِ فِي شَلَلِ الجُمُود؛ فِي البِدَايَةِ بَحَثْتُ طَوِيلاً عَنِ الطَّيَّةِ الَّتِي تُخْفِي طَرَفَ اللُّفَافَةِ الوَحِيدَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْتَصِرُهَا؛ وَجَدْتُهَا تَحْتَ إِبِطِهَا، وَبِبُطْءٍ رُحْتُ أُلُفُّهَا عَلَى أَصَابِعِي، لُفَافَةً مِنَ القُطْنِ الَّتِي كَانَت كُلَّمَا ازْدَادَ سُمْكُهَا شَيْئًا فَشَيْئًا تَنَاقَصَتْ مِن عَلَى جَسَدِهَا، كَاشِفَةً شَكْلَ جَسَدِهَا الصِّبْيَانِي؛ اكْتَشَفْتُ شَعْرًا كِسْتَنَائِيًّا، وَوَجْهًا شَاحِبًا، وَكَتِفَيْنِ ضَيِّقَتَيْن، وَثَدْيَيْنِ صَغِيرَيْنِ،

وَبَطْنًا تَنَامَت عَلَيْهَا بُثُورٌ دَاكِنَة؛ فِي انْفِرَاجَةِ الفَخْـذَيْنِ فَرْجٌ نَاضِجٌ، فَسَاقَانِ نَحِيلَتَانِ، وَعُرْقُوبَانِ يَمِيلاَنِ قَلِيلاً إِلَى الدَّاخِلِ؛ الشَّفَتَانِ ظَلَّتَا مَزْمُومَتَيْنِ؛ وَحْدَهَا العَيْنَـانِ كَانَتَا مُتَحَرِّكَتَيْنِ؛

آنَئِذٍ أَعْطَيْتُهَا نَسْمَةَ قُبْلَة.

الوَحشُ الكَامِـن

كَمُنَ الوَحْش؛ أَخَذَ استِرَاحَتَهُ الصَّمَّاءَ، وَهَيْئَتَهُ البَرِيئَةَ البَشُوشَةَ، وَاعْتِزَالَةَ الشِّتَاءِ وَالشَّيْخُوخَة؛ دَعَوْنَاهُ لِلتَّمَدُّدِ تَحْتَ الطَّاوِلَةِ أَوْ قُرْبَ المِدْفَأَة، نَقَشْنَا عَلَى الأَحْجَارِ عَضَلاَتِهِ المُرْتَخِيَةَ، وَجْهَهُ المُغْلَقَ، وَعَيْنَيْهِ المُتْعَبَتَيْن؛ زَيَّنَّا بِسَاتِينَ قُصُورِنَا بِحُضُورِهِ السَّاكِن؛ وَذِكْرَى قَفَزَاتِهِ الهَادِرَة، وَجُوعِهِ المُنْقَضِّ عَلَى أَجْسَادِنَا، لَمْ تَعُدْ تَسْكُنُ سِوَى الذَّاكِرَةِ العَجُوزِ المَصُونَةِ بِالأَسَاطِيرِ الَّتِي أَحْيَانًا مَا نَحْكِيهَا لِلأَطْفَالِ كَيْ لاَ يَنَامُوا؛

نَسِيْنَاه؛ صَحِيحٌ أَنَّنَا نُسَارِعُ إِلَى طَمْأَنَةِ أَنْفُسِنَا؛ فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ نَحْيَا بِمَخَاوِفَ دَائِمَة، بِمَخَاطِرَ غَيْرِ مُؤَكَّدَة، بِشُكُوكٍ مَاكِرَة؛ نَنْتَصِرُ عَلَى الوَحْشِ بِأَبْخَسِ الأَثْمَان؛ وَالآنَ نَرَاهُ جَمِيلاً، لَمْ يَعُدْ بَشِعًا وَلاَ فَظًّا؛ جَمِيل؛ نُعْجَبُ بِرِقَّتِه، بِرَشَاقَتِه؛ أَصْبَحَ مَأْلُوفًا لَنَا، نُزَخْرِفُ بِهِ أَفَارِيزَنَا وَنُقُوشَنَا؛ نَرْسُمُهُ عَلَى سِجَّادَاتِ قَاعَاتِنَا وَعَلَى الثِّيَابِ المُبَرْقَشَةِ لِحَفَلاَتِنَا؛ وَيَجْعَلُ مِنْهُ المُحَارِبُونَ رَايَةَ غَزَوَاتِهِم، ضَارِبِينَ فِي الرِّيحِ بِلِسَانِهِ كَالسَّوْطِ؛ وَكُلَّ يَوْمٍ تُهَدْهِدُهُ النِّسَاءُ بِتَطْرِيزَاتِهِن، وَيَلْعَبُ

الصِّبْيَةُ دَوْرَهُ فِي تَمْثِيلِيَّاتِهِم الَّتِي يَسْخَرُونَ بِهَا مِنَ العَجَائِزِ؛

لاَ، لَمْ تَعُدْ لِلْوَحْشِ أَمَاكِنُ لاسْتِرَاحَتِهِ أَو اعْتِزَالِه، وَلاَ فَضَاءَاتٌ أُخْرَى لاسْتِكْمَالِ مَصِيرِهِ الوَحْشِي؛ لاَ البَحْرِ، الهَائِجُ فِي بَعْضِ أَيَّامِ اعْتِدَالِ الرَّبِيعِ ذَاتِ الاضْطِرَابِ الهَائِلِ، وَلاَ السَّمَاءُ المَشْطُوبَةُ أَحْيَانًا بِخَدْشٍ أَبْيَضَ، أَحْدَثَهُ بِغَرَابَةٍ ذَيْلُ عُصْفُورٍ مُتَلأْلِئٍ، وَلاَ غَابَاتُنَا الأَقَلُّ كَثَافَةً مِنَ السَّابِقِ حَيْثُ لَمْ نَعُدْ نَتُوه؛

مُنْتَصِرُون، هَكَذَا كَانَ عِنْدَ أَقْدَامِنَا، فِي أَيْدِينَا، بِلاَ خَوْفٍ بِدَاخِلِنَا وَلاَ كَوَابِيسَ فِي رُؤُوسِنَا؛ كَامِنًا، مُلْتَفًّا عَلَى نَفْسِه، سَاكِنًا، أَصْبَحَ الوَحْشُ الآنَ عَبْدَنَا الحَمِيم؛ لَكِنَّهُ مَا يَزَالُ يَتَنَفَّس، بِوَهَنٍ، لَكِن بِنَفَسٍ مُنْسَاب، مِنْ لُهَاثِ جَمَاعِي، مِنْ حَشْرَجَةٍ جَمَاعِيَّةٍ تَكْمُنُ فِي أَعْمَاقِ صَدْرِ كُلٍّ مِنَّا؛ وَمَعَ ذَلِك، فَقَدْ يَحْدُثُ أَحْيَانًا أَنْ نَسْمَعَ صُرَاخَهُ فِي وَجْهِ الطَّاغِيَةِ أَوْ صَرْخَةَ المُعَذَّب، أَنْ نَتَعَرَّفَ عَلَى أَلاَعِيبِه فِي مَكِيدَةِ جَاسُوسٍ أَوْ دَسَائِسَ مُحْتَال، وَحَتَّى هَيْئَتِهِ العَصَبِيَّةِ فِي انْتِفَاضَاتِ المَرْأَةِ

المَمْسُوسَة؛ مَا يَزَالُ الحَرُّ يَسُودُ المَدِينَة، وَاللَّيَالِي فِيهَا مُثْقَلَةٌ بِرِيحٍ كَثِيفَة؛

آنَ الأوَان، لِمَنْ يَعْرِفُونَ الإِشَارَات، لِلانْسِحَاب إِلَى الجَبَلِ المُجَاوِر، إِلَى مَخْبَأٍ وَعْر، وَانْتِظَارِ أَنْ تَتَهَاوَى الشَّائِعَة.

عُيُونُ البَحْر

إِلى مُنصِف غَشام

أَحْيَانًا مَا تَكُونُ هُنَاكَ عَلَى الْبَحْرِ عُيُونٌ تَنْظُرُ إِلَى عُيُونُ أَفرُوديت ربَّمَا، السَّمَاءِ وَالشَّمْس لِلاسْتِمْتَاعِ بِهِمَا، البَاحِثَة عَنِ انْعِكَاسٍ لِتَرَى نَفْسَهَا، عُيُونٌ مُغْرَوْرِقَةٌ لِسِيرِينَات يَائِسَات مِن احْتِضَانِ عُشَّاقِهِنَّ المُتَكَوِّرِينَ عَلَى نُهُودِهِنَّ المَجْبُولَة مِنْ زَبَد، عُيُونُ "زُهُورِ البَحْرِ" الَّتِي تَرْشُقُ بِسِهَامِهَا الكُرُومِيَّةِ حِزْمَةً قَاتِلَة.

هُنَاكَ، أَيْضًا، مِنْ بَيْنِ الكَائِنَاتِ البَحْرِيَّة، مَا لاَ يُحْصَى مِنَ العُيُونِ بِلاَ جُفُون، عُيُونُ أَسْمَاك قَادِرَةٍ عَلَى التَّعَرُّفِ عَلَى أَصْغَرِ تِبْرَةٍ مِنَ الضَّوْءِ السَّاقِطِ فِي آبَارِ الهَاوِيَة، وَعُيُونٌ عَمْلاَقَةٌ لِحِيتَانٍ تَئِن، عُيُونٌ حَنُونَةٌ لِدَلاَفِينَ، عُيُونٌ مُرْتَابَةٌ لأُخْطُبُوطَات، عُيُونٌ سَوْدَاءُ لِقُرُوشٍ فَارَّةٍ، وَأَيْضًا عُيُونٌ مُرْهَفَةٌ صَدَفِيَّةٌ لأَسْمَاكٍ صَغِيرَةٍ تُحِيطُ بِي أَسْرَابًا فِي عَوْمِي.

هُنَاكَ، تَحْتَ المَاءِ، عُيُونُ رِجَالٍ تُفَتِّشُ بَيْنَ الطَّحَالِبِ وَالصُّخُورِ لِجَنْيِ الفَوَاكِه مِنْ بُسْتَانِ البَحْرِ؛ يُمَيِّزُونَ عَنْ بُعْدِ الصَّدَفَةَ السَّوْدَاءَ أَو الخَضْرَاءَ أَوِ الرَّمَادِيَّةَ الَّتِي إِذَا مَا أَرَادَت نَشْرَ عَصِيرِهَا المَالِحِ،

وَإِهْدَاءِ مَادَّتِهَا اليُودِيَّة، تُوَسِّعُ مِنْ فَتْحَتِهَا مِثْلَمَا تَتَهَلَّلُ حَمِيمِيَّةُ امْرَأَة.

هُنَاكَ، فَوْقَ المَاءِ عُيُونُ بَحَّارَةٍ تَكْبُرُ بِعَدَسَاتٍ سَمِيكَةٍ إِذَا مَا نُصِبَتْ عَلَى السَّطْحِ الشَّاسِعِ تَبْحَثُ عَنِ البَعِيدِ، وَأَحْيَانًا مَا تَصْرُخُ "أَرْض" أَوْ "سَفِينَةٌ إِلَى اليَسَارِ"، "إِلَى اليَمِين"، حَسْبَمَا تَنْبَثِقُ السَّرَابَاتُ عَلَى سَطْحِ الأُفُقِ اللاَّمُتَنَاهِي لِتَخْتَلِسَ مِنْهُ الفَرَاغ؛ هُنَاكَ اليَوم وُحُوشٌ بَحْرِيَّةٌ جَدِيدَةٌ، مَا تَزَالُ تَنْفُثُ النَّارَ وَتَهْدِرُ بِالتُّورْبِينَات، عُيُونُهَا بِلاَ جُفُونٍ وَلاَ ضَغِينَة، عُيُونٌ بَارِدَة، عُيُونٌ الكْتْرُونِيَّة، تَدُورُ بِلاَ تَوَقُّفٍ مِنَ المَرْسَى إِلَى عَرْضِ البَحْرِ، تَعْرِضُ عَلَى شَاشَاتِ الرَّادَارَات، فِي أَحْشَاءِ السُّفُنِ، نِقَاطًا لاَمِعَةً تَفُكُّ شَفْرَتَهَا عُيُونٌ أُخْرَى تَحْتَ خَطِّ الطَّفْو.

هُنَاكَ أَيْضًا عُيُونٌ مِنْ آلاَفِ السِّنِينِ لِصَيَّادِينَ يَغِيبُونَ شَيْئًا فَشَيْئًا مِثْلَمَا تَنْطَفِئُ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ مَصَابِيحُ الصَّيْدِ اللَّيْلِي، وَيُرْسُونَ القَوَارِبَ فِي أَرْصِفَتِهَا نِهَائِيًّا. كَانُوا يُسَمُّونَهُم قَبَاطِنَةً أَو رُؤَسَاء، حَسْبَ الشَّاطِئ؛ عُيُونُهُم كَانَتْ تَعْرِفُ التَّمْيِيزَ فِي رِجْفَةِ المَاءِ، فِي لَوْنِ

البَحْرِ، فِي تَعَارِيجِ السَّاحِلِ أَو فِي مُخُــورِ الزَّبَــدِ، أَيَّ صَيْدٍ بَحْرِيٍّ يُلاَحِقُونَ ذَلِكَ اليَوْمَ بِصِنَّارَاتِهِم وَشِبَاكِهِم؛ كَانُوا يَعْرِفُونَ أَيْضًا النُّجُومَ ذَاتَ الأَسْــمَاءِ القَدِيمَــةِ، وَالرُّؤُوسَ البَحْرِيَّةَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي نَتَجَاهَلُهَا اليَوْمَ، وَكُلَّ طُيُورِ البَحْرِ الَّتِي لَمْ تَقُم أَبَدًا بِــأَيِّ دَوْرٍ فِــي أَصْــغَرِ مَأْدُبَةٍ؛ بَلْ كَانَ يَحْدُثُ أَيْضًا- عِنْدَمَا يُصْلِحُونَ شِبَاكَهُم- أَن يَعْثُرُوا عَلَى سَمَكَةٍ صَغِيرَةٍ، ضَالَّةٍ وَكَامِنَــةٍ بَــيْنَ ثُقُوبِ الشَّبَكَةِ، بِعَيْنٍ سَاكِنَةٍ لَكِنَّهَا لَم تَنْطَفِئْ بَعْدُ، تَتَقَاطَعُ نَظْرَتُهَا مَعَ نَظَرَاتِهِم دُونَ أَن يَتَمَكَّنُوا لَحْظَةً مِنْ تَحْوِيلِ أَنْظَارِهِم عَنْهَا؛ كَانُوا يَرْمُونَ بِالتَّالِي هَذِهِ السَّمَكَةَ المَيِّتَةَ فِي البَحْرِ، كَمَا لَو كَانَت عَيْنُهَا، عَيْنُهَا وَحْدُهَا، سَتَسْتَعِيدُ فِي المَاءِ الحَيَاةَ عَلَى الفَوْرِ.

هُنَاكَ أَيْضًا عَلَى البَحْرِ عُيُونُ شُعَرَاءَ تَنْظُرُ إِلَيْــهِ بِلاَ مَلَلٍ، بِإِخْلاَصِ العُشَّــاقِ المُتَيَّمِــينَ؛ لاَ يُفَــارِقُونَ سَاحَتَهُ، وَيُقِيمُونَ فِيهَا سَهَرَاتِهِم، لاَ يَخْشَــوْنَ الحُرْقَــةَ المَرِيرَةَ لِشَمْسِ الظَّهِيرَةِ وَلاَ الرِّيحَ المُلْهِبَةَ لِلْعَوَاصِفِ، وَلاَ حَتَّى أَكْدَاسَ الرَّمْلِ الَّتِي قَدْ تُعْمِيهِم؛ إِنَّهُم جَالِسُونَ فِي حَدٍّ أَقْصَى لاَ يُمْكِنُ المُجَازَفَةُ أَبَدًا بِالجُلُوسِ فِيــهِ،

كَامنينَ فِي مَغَارَةٍ بَحْرِيَّة، أَوْ يَتَقَدَّمُونَ نَحْوَ فَصْلِ الوحْدَة، عَلَى شَوَاطِئَ لاَنِهَائِيَّة، دُونَ رُجُوعٍ أَبدًا عَلَى خُطَاهُم. مِنْ بَيْنِ هؤُلاَءِ الشُّعَرَاءِ مَنْ يَسْمَحُ الْبَحْرُ لَهُمْ أَحْيَانًا بِالنَّظَرِ إِلَيْه، فِي زُرْقَةِ عَيْنَيْه، أَمَّا البَاقُونَ فَيَقْضُونَ حَيَاتَهُم كُلَّهَا يَحْلُمُونَ بِهَذَا الامْتِيَاز: فِي أَرْخبيلاَتٍ مُبَارَكَةٍ وُلِدَ البَعْضُ فِي مَهْدِ الأَرْبَاب؛ الآخَرُون، مَنْفِيِّينَ اليَوْمَ أَوْ مُهْتَدِين، كَانَتْ لَهُم طُفُولَةٌ بَعِيدَة، فِي سُهُولٍ شَاسِعَةٍ مُعْتَمَةٍ وَرَطْبَة، يَقْطَعُهَا لِحُسْنِ الحَظِّ نَهْرٌ كَانُوا يَهْبِطُونَهُ حَتَّى مَصَبِّه؛ آخَرُونَ كَانُوا يَسْكُنُونَ مُنْذُ الأَزَلِ فِي مِينَاءِ الأَلْفِ عَامٍ وَيَقْفِزُونَ مِنَ الرَّصِيفِ إِلَى القَارِبِ فِي سِنِّ الرِّضَاعَة، تُمْسِكُ بِهِم بِرِقَّةٍ أَيَادِي بَحَّارَةٍ لَهُم بَشْرَةٌ نُحَاسِيَّةٌ وَأَغَانٍ رُجُولِيَّة. عُيُونُهُم فَوْقَ أَلْسِنَتِهِم، أَوْ أَلْسِنَتُهُم عَلَى عُيُونِهِم، لاَ أَدْرِي؛ وَإِذَا مَا تَكَلَّمَ البَحْرُ كَمَا تُؤَكِّدُ الأَسَاطِيرُ، إِذَا مَا تَصَاعَدَت مِنْهُ مُوسِيقَى أَو أَصْوَاتٌ كَمَا نَظُنُّ أَنَّنَا نَسْمَعُهَا أَحْيَانًا، فَإِنَّنِي أَعْرِفُ أَنَّهُم هَؤُلاَءِ الشُّعَرَاءُ السَّحَرَة- الَّذِينَ إِذَا مَا رَمَوْنَا بِنَظْرَةٍ، تَمَكَّنُوا مِن إِقْنَاعِنَا، فَحِدَّةُ عُيُونِهِم تُقَوِّي جَلاَءَ كَلِمَاتِهِم.

إِذْ مُنْذُ ذَلِكَ الزَّمَن- وَالمجْـدَافُ فَـوْقَ الكَتِـف
أَحْيَانًا- يَمْتَلِكُونَ أَسَاطِيرَ وَقَصَائِدَ جَمِيلَةً؛ فَسِرٌّ وَاحِـدٌ يَجْمَعُهُم: أَنَّهُم يُقَرِّبُونَنَا وَيُبْعِدُونَنَا فِي نَفْسِ الوَقْـت. لاَ، نَحْنُ لاَ نَرَى حَقًّا البَحْر؛ وَعُيُونُنَا مَشْدُودَةٌ إِلَيْـه بِـلاَ جَدْوَى. إِنَّهَا عَيْنُهُ الهَائِلَةُ، الفَرِيدَة، الخُرَافِيَّـة- الَّتِـي تَرَانَا بِلاَ نِهَايَةٍ دُونَ أَنْ تَرِف.

***

خسَارَةُ يَوْمٍ- رُبَّمَا- أَو حَيَاة، بِالتَّأَمُّلِ فِي وَهْـم، بِالإِيمَانِ بِالمَظَاهِرِ الَّتِي سَنَنْسَاهَا فِيمَـا بَعْـد، بِتَبْدِيـدِ الحَاضِرِ فِي الأَحْلَامِ، وَالبَدْءِ مِنْ جَدِيد، وَالانْتِظَار، ثُمَّ عَدَمِ الانْتِظَار، وَفَجْأَةِ الإِيمَانِ الشَّرِسِ بِالاكْتِشَاف، ثُـمَّ الضَّلَالِ فِي الشِّرَاك، أَو الأَهْوَاء، وَالبَدْءِ مِـنْ جَدِيـدٍ أَيْضًا، وَإِلَى أَيِّ عُمْر، لَنَرَى- رُبَّمَا أَبَدًا- إِلَـى أَيْـنَ يَقُودُنَا ذَلِك، إِلَى اللاَّشَيء، أَو لَنَعْـرِفَ فِـي النِّهَايَـة، وَسَتَكُونُ تِلْكَ هِيَ المَعْرِفَة، لَكِن لِمَاذَا وَإِلَى مَتَى، لَـوْ دَامَت الحَيَاة، لَو، رُبَّمَا، لَكَانَت الرَّغْبَةُ أَكْثَرَ فِي البَـدْءِ مِنْ جَدِيدٍ مَرَّةً أُخْرَى بِالإِيمَان، فَذَلِكَ يُمْكِنُ أَن يَكُـونَ مُجْدِيًا، دُونَ أَنْ نَدْرِيَ حَتَّى فِي مَاذَا، فِي الحَقِيقَةِ فِي لاَ شَيْء، لَكِنَّ الإِيمَانَ رِغْمَ ذَلِكَ، وَالتَّأَمُّلَ مِنْ جَدِيـدٍ، أَو البَحْثَ بِبَسَاطَة، وَأَخِيرًا، بَعْدَ التَّأَكُّدِ مِنَ القُـدْرَةِ عَلَـى الفِعْل، فِعْلَ شَيْءٍ مَا، عَلَى الأَقَلِّ شَيْءٍ مَا مِنَ الـذَّات، وَفَجْأَةَ العُدُولَ لأَسْبَابٍ صِحِّيَّة، وَالانْتِهَاءَ مِنْهُ، وَدَفْـنَ السُّؤَالِ فِي النِّسْيَان، لَكِن هَلْ يُمْكِنُ أَنْ نَنْسَى، مِنْ أَجْلِ أَن نَحْيَا، النِّسْيَانَ بِصُورَةٍ مُطْلَقَة، هِيَ كَانَت تَقُولُ ذَلِكَ فِي غَالِبِ الأَحْيَان، بِلاَ كَلاَم، لاَ، لاَ ضَرُورَةَ لِلْكَـلاَم، فُقْدَانُ الذَّاكِرَة، نَعَم، انْعِقَادُ اللِّسَانِ أَيْضًا؛ آهٍ! كَمْ كَانَت

المُصَادَفَاتُ الكُبْرَى لِلْجَسَد، وَالقَلْـــب، وَالرَّغْبَـــة، دُونَ قَطْعِ الرَّأْس، دَونَ قَطْعِهَا، لَو- كَمَا قَـــالُوا- نَسْـــتَطِيعُ ذَاتَ يَوْمٍ، لَكِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ صَعْبًا، وَطَوِيلاً، كَمَا فِـــي أَقْصَى العُمْقِ، لَكِن لاَ أَطْوَلَ مِنْ ذَلِـــك، وَلاَ أَصْـــعَب، فَالانْتِظَارُ إِذَن مِنْ جَدِيدٍ، وَالبَحْثُ، أَو خَسَارَةُ يَوْمٍ، أَو حَيَاةٍ- رُبَّمَا، وَالإِيمَانُ بِالمَظَاهِرِ، وَالتَّأَمُّلُ فِـــي وَهْـــم، سَوْفَ نَنْسَاهُ فِيمَا بَعْد.

الأَنَاشِـــيد

عندما كَتبتُ أُولَى هذه الأناشيد، كانت بيروت مشتعلة؛ وكنتُ أفكر في الشاعرين اللبنانيين "جورج شحادة" و"صلاح ستيتيه".

واستكملت كتابة هذه الأناشيد في الوقت الذي كانوا يهدمون فيه حائط برلين، وسقط الستار الحديدي الذي كان مضروباً على شرق أوروبا من قبل. فيما بعد، تمزقت يوغوسلافيا، والجيران– أصدقاء الأمس– تقاتلوا.

واليوم، اشتعل الشرق الأوسط من جديد. الشاعر ليس السياسي. فله– في الحدث وغالباً ضده– أن يؤكد على السلم والأخوة، حتى ولو بالحلم وحده.

ج–ك.ف

أغسطس ٢٠٠٢

الأنشُودَةُ الأُولَى

فَلْتَسْتَرِح الآنَ مِنْ لَيَالِي أَرَقِك، وَامْسَحْ دُمُوعَ السُّهَادِ الَّتِي كَانَ الظَّلاَمُ يَبْتَلِعُهَا بِلاَ حِسَابٍ لِلزَّمَنِ؛ ضَعْ قَدَمَيْكَ الحَافِيَتَيْنِ طَوِيلاً عَلَى نَدَاوَةِ البَلاَطِ، وَانْعَمْ فِي اللَّيْلِ بِسَلاَمٍ أَبْكَمَ إِزَاءَ كُلِّ جَزَعٍ؛ نَعَم كَانَ لاَبُدَّ مِنْ عَيْنَيْنِ جَدِيدَتَيْنِ، وَيَدَيْنِ، وَذِرَاعَيْنِ لِفَتْحِ كَتِفَيْكَ وَبَسْطِ شَعْرِكَ عَلَيْهِمَا، وَحَلِّ ضَفَائِرَكَ فِي النِّهَايَةِ؛ انْظُرْ كَمِ الهَوَاءُ اليَوْمَ أَكْثَرَ خِفَّةً وَنَقَاءً مِمَّا كُنْتَ تَظُنُّ؛ لَم يَعُدْ سَاخِنًا كَمَا فِي المَاضِي عِنْدَمَا كُنْتَ تَتَنَفَّسُهُ وَسْطَ العَرَقِ وَالْحُرْقَةِ؛ آنَئِذٍ كَانَت شُعْلاَتٌ قَصِيرَةٌ تَجْرِي فِي حَلَقَاتٍ غَرِيبَةٍ؛ خُذ، الآنَ هُنَا، الكِتَابَ الَّذِي لَمْ تَكُنْ تَجْرُؤُ عَلَى فَتْحِه؛ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ بِهِ صَفَحَاتٍ حَدَّدَتْهَا يَدٌ أُخْرَى، وَعَلَى الصَّفْحَةِ الأُولَى خُطَّتْ بَعْضُ الإِشَارَاتِ الَّتِي يُمْكِنُكَ الآنَ التَّعَرُّفُ عَلَيْهَا؛ نَعَم، عَيْنَاكَ تُجِيدَانِ القِرَاءَةَ مِنَ الآنَ فَصَاعِدًا؛ شَفَتَاكَ تُرَنِّمَانِ الصِّيَاغَاتِ المَحْفُوظَةَ، وَفِي ظِلِّ الشُّرْفَةِ حَيْثُ تَرَى بُزُوغَ الفَجْرِ، تَصِلُكَ رَوَائِحُ البَسَاتِينِ القَرِيبَةِ مِنَ البَحْرِ؛ يُمْكِنُكَ أَنْ تُغَمْغِمَ فِيهَا بِصَوْتٍ خَافِتٍ أُغْنِيَةَ الطُّفُولَةِ البَعِيدَةِ الَّتِي نَسِيتَهَا؛ لاَ، مَا مِنْ دُمُوعٍ بَعْدَ الآنَ: فَذِكْرَى الأُغْنِيَةِ يَمْنَحُكَ السَّكِينَةَ.

الأُنشُــودة الثَّانية

الأَنَاشِيدُ تَعْلُو؛ سَلاَمٌ عَلَى أَجْنَاسِنَا فِي هَذِهِ الأَيَّامِ
الَّتِي يَنْتَظِرُهَا الحُكَمَاء، أَرْهِفُوا السَّمْعَ لِجُوقِنَا المُنْشِدِ؛

الآنَ يَتَنَزَّلُ دَاخِلَنَا التَّنَاغُمُ المَأْمُول: نَعَم، هُوَ اللِّقَاءُ المُنْتَظَرُ بَيْنَ الأَرْضِ وَالسَّمَاء؛ الأُمَمُ تَنْظُرُ إِلَيْنَا دُونَ أَنْ تَعْرِفَ مَا إِذَا كَانَ يَنْبَغِي التَّعْجِيلُ أَم كَبْحُ تَارِيخِنَا الطَّوِيلِ الأَلِيم، أَيَّ كَلِمَات يَقُولُونَ لَنَا، وَبِأَيَّةِ لُغَة؛ لُغَتُنَا قَدِيمَةٌ، فَهَل نَحْتَاجُ إِلَى أُخْرَى جَدِيدَة؛ الأَبُ يُقَبِّلُ الإِبْنَ وَالبِنْتُ تَتَعَرَّفُ عَلَى أُمِّهَا؛ لَقَد انْتَزَعُوا- كَمَا يُقَالُ- الأَعْمِدَةَ الخَشَبِيَّةَ الَّتِي تَشُدُّ الأَسْلاَكَ الشَّائِكَة، وَأَزَالُوا الحُدُود، وَأَعَادُوْا فَتْحَ الجِسْرِ القَدِيمِ فَوْقَ النَّهْر؛ وَالأَطْفَالُ- جَمَاعَات جَمَاعَات- اكْتَسَحُوا السَّاحَاتِ وَالبَسَاتِين؛ حَتَّى العَصَافِيرُ عَادَتْ إِلَى الأَغْصَان؛ بِخُطُوَاتِهِم المُثَّاقِلَة غَادَرَ العَجَائِزُ عَتَبَاتِهِم؛ لَنْ يَكُونُوا آخِرَ مَنْ يَدْرِي؛ إِنَّهُم يَجْتَرُّونَ الأَفْكَار: أَمَا يَزَالُ فِي قُلُوبِهِم الضَّجِرَةِ مَا يَكْفِي مِنَ الأَمَلِ لِلتَّعَرُّفِ عَلَى الجَدِيد، لِنَقْشِهِ مَكَانَ جِرَاحِهِم؛ هَل سَيَتَمَكَّنُونَ مِن اخْتِيَارِ طَرِيقِ البَحْرِ بَدَلاً مِنَ المَقَابِر؛ صَحِيحٌ أَنَّنَا سَنُوَاصِلُ تَزْيِينَ المَدَافِنِ بِالزُّهُور، وَحِرَاسَةَ الرَّمَادِ المُقَدَّسِ بِصَبْر- نَحْنُ لاَ نَنْسَاه: كَانَت النَّارُ بِالأَمْسِ مَا تَزَالُ مِنْ مَسْحُوقِ وَبُرُونْز- وَسَنَعْرِفُ لأَمَدٍ بَعِيدٍ أَسْمَاءً وَأَمَاكِنَ لاَ يَجْمَعُهَا سِوَى الدَّمِ وَالظَّلاَم، فِي بُرُودَةِ

القُرَى الصمَّاء، وَضيقِ الحَارَات المُنْحَدرَة إِلَى الزَّاوِيَة، تلْكَ الحَارَات الَّتي كَانَت الجُثَثُ تَسَّاقَطُ منهَا؛ الآنَ، فَلْنَحْتَفل هُنَا، آنَ الأَوَانُ للاعْتِرَاف بنَا، بِبَدَاهَة أَسْمَائنَا وَجيرَتنَا؛ وَأَسْلاَفنَا الأَقْدَمينَ الَّذينَ انْحَدَرُوا منْ جُذُورٍ تَوَائم، وَالرَّوَابط المُتَشَابكَة، وَأُلْفَة لُغَاتنَا، وَقُرْب أَسْطُحنَا الَّتي لَن يَأْتينَا منْهَا- منَ الآن فَصَاعدًا- سوَى المَطَرِ وَالشَّمْس؛ لَن نُخَبِّئَ بَعْدَ الآن الأَطْفَالَ منْ مَصيرٍ بَصيرٍ أَكْثَرَ منَّا: أَطْفَالٌ حَمَلَتْ بهِمْ أُمَّهَاتُهُم في الرَّغْبَة الوَحْشيَّة لرجَالٍ وَنسَاءٍ أَعْدَاء؛ كَانَ لَدَيْهِم الحَقُّ في الميلاَدُ؛ وَبمَا أَنَّ غَريزَتَنَا تَمْنَعُنَا منَ التَّضْحيَة بهِم، فَإِنَّنَا نُدْرِكُ الآنَ أَفْضَلَ السَّبَبَ الغَامضَ الَّذي جَعَلَنَا نَحْتَاجُ إِلَى أَجْيَالٍ قَاسيَةٍ وَعَنيدَة، تَائهَةٍ وَمَهْزُومَة، لنُدْرِكَ بالكَاد هَذَا الدَّرْسَ البَسيطَ، فَهَل سَتَكُونُ لَدَيْنَا القُدْرَةُ عَلَى حفْظه، عَلَى تَرْديده فيمَا وَرَاءَ الصَّحرَاء المُحيطَة بنَا في الجَنُوب، في الشَّرْق، وَعَلَى البَحْرِ الَّذي يَلْتَمعُ كُلَّ مَسَاءٍ بنَفْسِ الأَحْمَر، عنْدَ المَغيب.

الأُنشُــودة الثَّالثة

سَلاَمٌ عَلَى وَجْهِكَ الَّذِي تُكَذِّبُ ابْتِسَامَتُه الْعُيُونَ
الشَّارِدَة، سَعَادَةُ قَلْبٍ تَصَّاعَدُ مُتَمَاوِجَةً عَلَى شَفَتَيْكَ أَنْتَ

طِفْلُ الشَّارِعِ الَّذِي يَحْمِلُ أَسْمَاءَ كَثِيرَةٍ- اسْمٌ لِكُلِّ مُضِيفٍ يُؤْوِيكَ- استَمْتِعْ كَمَا فِي المَاضِي بِإِحْصَاءِ الغُيُومِ، وَتَقْلِيدِ أَشْكَالِهَا عَلَى الرِّمَالِ أَو الطِّينِ الَّذِي تَسْتَخْرِجُهُ مِنَ البِرْكَةِ؛ وَأَكْمِلْ مُخَاطَبَةَ العَصَافِيرِ الَّتِي تَحُطُّ عَلَى يَدَيْكَ: أَنْتَ الوَحِيدُ مِنَّا الَّذِي يُبَادِلُهُم الكَلِمَاتِ المَأْلُوفَةَ؛ فَأَيَّةُ حِيلَةٍ لَدَيْكَ لِتَسْتَبْقِيَهَا، أَيَّةَ حُبُوبٍ تُخْفِيهَا فِي جُيُوبِكَ، مَذَاقُهَا أَطْيَبُ مِنَ الثِّمَارِ الَّتِي تَنْمُو عَلَى حَافَّةِ الغَدِيرِ الَّذِي يَجْرِي فَوْقَ الأَطْلَالِ؛ هَا هُنَا يُقَالُ أَحْيَانًا أَنَّكَ غَرِيبُ الأَطْوَارِ، لأَنَّكَ مُفْعَمٌ بِالرِّقَّةِ فِي هَذَا العَالَمِ المُمَزَّقِ بِالكَرَاهِيَةِ، بِالخَوْفِ وَالجِرَاحِ؛ الحَيَاةُ بِالنِّسْبَةِ لَكَ هِيَ فِي الهَوَاءِ، فَوْقَ الأَشْجَارِ، وَفِي السَّمَاءِ: تَنْظُرُ فِيمَا أَعْلَى مِنْ سَطْحِ المَنَازِلِ حَيْثُ كَانَ لَهِيبُ النِّيرَانِ يَنْزِلُ- مَرَّاتٍ عَدِيدَةً- حَتَّى الأَرْصِفَةِ المُزْدَحِمَةِ لِطُرُقَاتِنَا؛ لاَ مَاضٍ لَدَيْكَ، أَو- عَلَى الأَقَلِّ- تَعِيشُ بِلاَ ذِكْرَى وَلاَ شُكُوكٍ؛ أَلِهَذَا السَّبَبِ لَم يُرَاوِدْكَ الخَوْفُ ذَاتَ يَوْمٍ، أَلِهَذَا لاَ تَكْتَرِثُ- دُونَ فَظَاظَةٍ- بِصَخَبِ أُنَاسِ الغُبَارِ؛ أَتَعْلَم، لَقَد رَصُّوا البَنَادِقَ فِي جَوْفِ الكُهُوفِ أَوِ الصَّنَادِيقِ، وَالنِّسَاءُ يُشْعِلْنَ كُلَّ مَسَاءٍ مَصَابِيحَ عَلَى النَّوَافِذِ؛ وَغَدًا سَتَعْبُرُ الشَّارِعَ الَّذِي أُعِيدَ

فَتْحُه، وَستُلاَحظُ فِي مُوَاجَهَتِكَ أَنَّ العَالَمَ هُوَ نَفْسُ العَالَم، أَنَّ الزَّمَنَ فِيهِ هُوَ نَفْسُه؛ سَتَفْهَمُ مَنْ يَتَكَلَّمُونَ وَسَيَتَعَرَّفُونَ عَلَيْكَ؛ نَعَم، حَتَّى العَصَافِير كَانَتْ تَعْرِفُ هَذِه البَدِيهِيَّة؛ لَكِنَّهَا رَغْمَ ذَلِك لَمْ تَقُلْ لَكَ شَيْئًا؛ لاَ تُؤَاخِذْهَا؛ فَالسَّمَاءُ تَتَجَاهَلُ مَا لَيْسَ مُجْدِيًا وَالحُدُودَ الزَّائِلَة.

الأُنشُــودة الرَّابعة

الآنَ بَابِي مَفْتُوحٌ وَمِنَ الشَّارِعِ أَلْمَحُ البَحْر؛ تَلاَشَى الدُّخَانُ الأَسْوَدُ مِنَ القِلاَعِ وَالبَوَاخِر؛ بِالْكَادِ- فِي هَذِهِ

السَّاعَةَ المُبَكِّرَةَ- يَغْشَى البَحْرَ بَيَاضُ الضَّبَابِ الخَفِيف؛ رَغْمَ ذَلِكَ أُمَيِّزُ المَكَانَ الَّذِي سَأَعُودُ إِلَيْهِ غَدًا بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ السَّنَوَات؛ سَأَحْلُمُ تَحْتَ الأَغْصَانِ الطَّوِيلَةِ لأَشْجَارِنَا، وَالأَنَفَةِ المُنْعِشَةِ لِحَدَائِقِنَا؛ سَأَعْثُرُ فِيهَا مِنْ جَدِيدٍ عَلَى مَمَرَّاتِي السِّرِّيَّةِ، وَأَلْعَابِي الجَرِيئَةِ لِطِفْلٍ مُقَاتِلٍ؛ نَعَم، سَأَهْبِطُ غَدًا؛ رُبَّمَا سَنَذْهَبُ جَمِيعًا لَو أَرَادُوا؛ هُنَا تُثَبَّتُ حِبَالٌ لِنَشْرِ الغَسِيلِ وَصَدِيقِي الشَّاعِرُ يَنْظُرُ إِلَى كُتُبِهِ فِي الرُّفُوفِ؛ لَمْ تُعَانِ كَثِيرًا- قَالَ لِي- وَغُبَارُهَا لَيْسَ سِوَى رِمَالِ النُّعَاسِ حَيْثُ كَمُنْتَ فِي التَّوَاطُؤِ الوَفِيِّ لِذَاكِرَتِي؛ غَرِيب؛ كَمْ تَصْفُو السَّمَاءُ هُنَا مِنْ جَدِيد؛ بِالتَّأْكِيد، هُوَ الرَّبِيع، أَيَّامُهُ الأُولَى، لَكِنَّنَا مُنْذُ الآن سَنَعْرِفُ ذَلِكَ دَائِمًا؛ سَتَسْطَعُ الشَّمْسُ القَاسِيَةُ أَيْضًا، وَالسَّوَادُ عِنْدَ دَقَّةِ السَّاعَةِ الوَاحِدَةِ؛ رَغْمَ ذَلِكَ سَنَشْرَبُ مَا يُنْعِشُنَا، دُونَ عَجَلَةٍ أَو قَلَق؛ نَعَم؛ أَعْرِف؛ مَا يَزَالُ هُنَاكَ الكَثِيرُ مِنَ العَمَلِ بَعْدَ كُلِّ مَا تَخَرَّب، وَلَنْ نُعِيدَ كُلَّ شَيْءٍ، سَنَبْدَأُ فِيمَا بَعْدَ العَمَلَ الحَقِيقِيَّ، وَالحَمَاسَ اللاَّزِمَ لِلْبِنَاء؛ الآنَ نَحْنُ عَلَى حَق؛ فَلْنَكْتَفِ فَحَسْب بِبَعْضِ الطُّقُوسِ: حَجْلَةٌ تَرْتَسِمُ فِي السَّاحَةِ وَتَصِلُنِي رَوَائِحُ مَطْبَخٍ قَدِيم؛ فَلْنَأْخُذْ أَيْضًا قَلِيلاً مِنْ هَذَا

الوَقْت، هُنَا، لِلاَشَيء، لِنُخْرِجَ بِبَسَاطَةٍ مَقَاعِدَ إِلَى الشَّارِعِ؛ حَقًّا، يَبْدُو أَنَّ الآخَرِينَ يَغْرِسُونَ أَشْجَارَ السَّلاَمِ فِي سَاحَاتِهِم؛ وَفِي الفَصْلِ القَادِمِ- إِذَا مَا سَمَحُوا بِذَلِك- سَنَتَذَوَّقُ مَعًا زَيْتَ ثِمَارِهَا.

الأُنْشُــودة الخامسة

أَمَامَ أَعْيُنِنَا سَقَطَ الجِدَار، وَبِالْكَاد نَتَعَرَّفُ عَلَى الحُدُودِ القَدِيمَة؛ وَفِي النِّهَايَةِ عَادَ إِلَيْنَا مَنْ كُنَّا نَنْتَظِرُهُم؛

أَجْيَالٌ مَرَّت، وَهَا هِيَ سِجِلاَّتُ ذَاكِرَتِنَا الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي بَقِيَتْ شِبْهَ مَفْتُوحَةٍ دَائِمًا قَدْ أُعِيدَ تَنْظِيمُهَا؛ الأَطْفَال؛ نَتَعَرَّفُ اليَوْمَ عَلَى الأَطْفَال؛ وَتُرَاوِدُنَا حَيَاةٌ قَدِيمَةٌ بِكَامِلِهَا؛ عَلَى أَرْصِفَةِ شَوَارِعِنَا نَتَعَرَّفُ عَلَى خُطوَاتِنَا القَدِيمَةِ؛ نَعَم، إِنَّهُم يَمْشُونَ بِسُرْعَةٍ أَقَل، هَلْ لاَحَظْتَ، وَثِيَابُهُم عَلَى الطَّرِيقَةِ القَدِيمَةِ؛ مَا يَزَالُونَ يَطْبُخُونَ البَصَلَ وَفِي أَنْفَاسِهِم رَائِحَةُ الثُّومِ عِنْدَمَا يَتَكَلَّمُونَ؛ وَيُسَاوِمُونَ فِي الأَسْوَاقِ عَلَى نَحْوٍ لَمْ نَعُدْ نَجْرُؤ عَلَيْهِ، وَفِي أَعَالِي البَلْدَةِ دَكَاكِينُ قَدِيمَةٌ فُتِحَتْ مِنْ جَدِيد؛ أَنَا أَيْضًا آكُلُ السَّمَكَ المَقْلِيَّ كَمَا يَطْهُونَه، وَفِي فَمِي عَادَ حِيٌّ الطُّفُولَةِ بِكَامِلِه؛ هَلْ سَمِعْتَ نَبرَاتِهِم، أَكْثَرُ حِدَّةً، صَافِرَةٌ أَحْيَانًا، وَالأَسْمَاءُ القَدِيمَةُ الَّتِي يَحْمِلُهَا أَطْفَالُهُم، نَعَم، يَتَكَلَّمُونَ بِسُرْعَةٍ، حَتَّى أَنَّهُم يَأْكُلُونَ كَلِمَاتِهِم؛ أَلأَنَّهُم جَاعُوا أَمَدًا طَوِيلاً؛ هَكَذَا، كَمَا تَرَى، لاَ نَحْتَاجُ إِلاَّ إِلَى جِدَارٍ، وَبَعْضِ الأَسْلاَكِ الشَّائِكَةِ، وَحَاجِزٍ لِكَبْحِ جِمَاحِ الزَّمَن، وَتَجْمِيدِ السَّاعَاتِ وَحَبْسِ شَعْبٍ فِي عَادَاتِهِ القَدِيمَةِ؛ رُبَّمَا كَمُنُوا- كَمَا تَقُولُ- فِي حَالَةِ انْتِظَارٍ، مِنْ أَجْلِ المُقَاوَمَةِ، وَالبَقَاءِ، وَالوُجُودِ رَغْمَ كُلِّ شَيء؛ لَكِن لِنَتْرُكِ اليَوْمَ هَذَا المَوْضُوعَ العَمِيقِ؛ وَغَدًا

فِي مَدَارِسِنَا، سَيُفَكِّرُ فِيهِ أَطْفَالُنَا بِلاَ حَرَجٍ كَبِيرٍ؛ فَلْنَرَ الآنَ ضَحِكَاتِهِم فَقَط تَنْعَكِسُ فِي زُجَاجِ نَوَافِذِ شَوَارِعِنَا وَالصِّبْيَةُ يَتَبَادَلُونَ أَلْعَابَهُم؛ أَلْعَابُهُم أَكْثَرُ خَشُونَةً لَكِنَّنَا نَشْتَهِيهَا؛ هَكَذَا يَصْنَعُونَ الطَّقْسَ وَيُعَلِّمُونَنَا، فَلْنُعْجَبْ بِهَذِهِ الحِكْمَةِ الغَرِيزِيَّةِ وَلْنَحْفَظِ الدَّرْسَ؛ بِالأَمْسِ فَقَط كَانُوا جَوْعَى، لَكِن تَبْقَى بَيْنَهُم قُلُوبٌ نَقِيَّةٌ نَحْسِدُهُم عَلَى الحَيَوِيَّةِ وَالحَمَاسِ اللَّذَيْنِ تَحمِلُهُمَا، نَحْنُ مِنْ كُلِّ هَذَا عُدْنَا؛ أَتَرَى، عَلَيْنَا أَن نَحْذَرَ مِن يَقِيننَا المُتَغَطْرِسِ: قِصَّتُهُم تَصِلُ إِلَى حَدِّ الإِزْعَاجِ؛ فَفِي مُقَابِلِ أَشْيَاءِ سُوقِنَا الكَبِيرِ نُقَدِّرُ أَرْوَاحَهُم بِالنُّقُودِ، أَتَفْهَمُ، أَيَنْبَغِي أَنْ نَمُرَّ بِنَفْسِ المِحَنِ لِمَعْرِفَةِ الثَّمَنِ الحَقِيقِي؟

الأُنشُــودة السَّادسة

كَانَ مِنَ الضَّرُورِيِّ دَائِمًا- بِلاَ شَكٍّ- أَن تَكُونَ لِلدُّوَلِ حُدُودٌ لِلاسْتِيلاَءِ عَلَى الشُّعُوب، وَإِيقَافِ انْتِجَاعِهَا الأَبَدِي، وَجُيُوشٌ وَلَوَائِحُ وَمَوَاكِبُ، وَصَرخَاتُ تَمَزُّقٍ أَعْمَقُ مِنْ أَنَاشِيدِ الفَرَحِ النَّادِرَة؛ وَلاَ شَكَّ أَنَّ الشِّعْرَ لَم

يَفْرِضْ نَفْسَهُ أَبَدًا عَلَى الطُّغَاةِ وَلاَ المَجَانِينِ الَّذِينَ يَصْرُخُونَ فِي انْطِلاَقِهِم خَارِجَ المُدُنِ بِاليَقِينِ العَنِيدِ؛ رَغْمَ ذَلِكَ، فَأَسْرَابٌ مِنَ الأَطْفَالِ- الَّذِينَ يَصْعَدُونَ كَمَدٍّ لَيْلِيٍّ- تَجَدِّدُ فِي كُلِّ عَصْرٍ نَفْسَ الآمَالِ: آبَاءٌ يَعِدُونَ أَنْفُسَهُم بِمُسْتَقْبَلٍ لَمْ يَكُنْ مِلْكًا لَهُم، وَأُمَّهَاتٌ يَتَبَادَلْنَ فِي كُؤُوسِهِنَّ أَحْلاَمًا مِنَ اخْتِرَاعِهِن؛ وَالمُؤَكَّدُ أَنَّ مُرُورَ شِهَابٍ، أَوْ زِيَارَةَ أَمِيرٍ، أَو مَوْتَ امْبِرَاطُورٍ طَالَ حُكْمُه لَمْ يُغَيِّرْ- أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ الأَحْدَاثِ الَّتِي نَتَذَكَّرُهَا- مَجْرَى الأَشْيَاءِ الَّتِي تَتَّخِذُ مَسَارًا آخَرَ؛

رُبَّمَا فَاتَ الأَوَانُ اليَوْمَ لاسْتِخْلاَصِ الدَّرْسِ، لِفَتْحِ لَفَائِفِ الرِّقِّ المَخْتُومَةِ؛ رَغْمَ ذَلِكَ، فَلاَبُدَّ أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ اليَوْمَ: أَنْ نَفْهَمَ لِمَاذَا- فِي بَعْضِ الفُصُولِ الرَّبِيعِيَّةِ- تُطِيلُ نَدَفُ الثَّلْجِ لِقَاءَهَا بِبَتَلاَتِ الكَرْزِ، لِمَاذَا يَقْتُلُ المَوْتُ بِسُهُولَةِ الحُبَّ؛ لِمَاذَا أَيْضًا يَجْرِي الطِّفْلُ نَحْوَ مَنْ كَانَت تَضْرِبُه؛ لَمْ تَعُدْ هُنَاكَ الآنَ مَعَالِمُ مُحَدَّدَةٌ، قَاعِدَةٌ مُؤَكَّدَةٌ وَسْطَ كُلِّ الانْحِرَافَاتِ وَكُلِّ الضَّلاَلِ، وَالآمَالِ وَالأَحْلاَمِ، حَتَّى التَّضْحِيَاتِ لَم تَكُنْ كَافِيَةً؛ سَيَكُونُ مِنَ الصَّوَابِ القَبُولُ بِالهِجْرَانِ، بِالالْتِحَاقِ-

دُونَ كَلِمَةٍ- بِزُمْرَةِ المُسْتَسْلِمِين الَّذِين- بِلاَ وَعْيٍ- يَمْشُونَ كَجُنُودٍ مُنْهَكِين؛ سَيَكُونُ مِنَ الصَّوَابِ أَيْضاً كَسْرُ المِرْآة، الَّتِي تَقِيسُ كُلَّ يَوْمٍ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ تَجَاعِيدَ المَرَارَةِ السَّاقِطَةِ مِنَ الشِّفَاه، وَإِيقَافُ السَّاعَةِ فِي وَقْتِ السَّاعَاتِ الَّتِي نَرْمِيهَا، وَخَنْقُ صُرَاخِ الوُحُوشِ المَسْلُوخَةِ فِي نَوْمِ المَدِينَة؛

وَمَعَ ذَلِك، رَغْمَ كُلِّ الإِشَارَاتِ وَالضَّعْف، فَالْفَصْلُ اليَوْمَ حَقًّا فَصْلُ التَّرْمِيم، لِتَرْقِيعِ شِبَاكِنَا بِلاَ مَلَل، تِلْكَ الشِّبَاكِ الَّتِي لاَ تَعُودُ بِشَيْء؛ بَلْ هُوَ وَقْتُ فَتْحِ مُؤَسَّسَاتٍ فِي نَفْسِ أَمْكِنَةِ الخَنَادِق، وَتَشْيِيدِ مَنَازِلَ جَدِيدَةٍ بِالمَعْدَنِ وَالزُّجَاجِ تَأْلَفُهَا العَصَافِير، وَإِطْفَاءِ أَجْسَادٍ فَوْقَ سَرِيرِ شَخْصٍ مُزْعِج؛ نَعَم، لَنْ يُدْهِشَنَا هَذَا بَعْدَ الآن، هُوَ أَيْضاً وَقْتُ البِنَاء، فِي السَّعَادَةِ السَّاذِجَةِ لِلارْتِحَالاَت، فِي حَمَاسَةِ البِدَايَاتِ الأُولَى.

الأُنشُــودة السَّابعة

فَرَحٌ فِي القُلُوب- تَقُولُ- فَرَح؛ المُوسِيقَى هُنَا عَادَت، أُحِسُّ بِهَا فِي أَصَابِعِي، تَحْتَ أَظَافِرِي، وَحَتَّى فِي شَعْرِي؛ الرَّنِينُ أَيْضًا هُوَ نَفْسُه، أَتَرَى، لَمْ يَنْسَجْنَ

هَبَاءً فِي ظِلِّ المَنَازِلِ الخَاوِيَةِ: إِنَّهَا أَشْيَاءٌ مُتَوَاضِعَةٌ تَجْرِي مِنْ عَصْرٍ إِلَى عَصْرٍ، تَغَيِّبُ الوَقْتَ اللاَّزِمَ لِتَمْنَحَ مَعْنًى لِلنِّسْيَانِ؛ وَتَعُودُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ جَدِيدٍ، نَعَمْ بَعْدَ وَقْتٍ طَوِيلٍ أَحْيَانًا، تُحْيِي الذَّاكِرَةَ، تُذَكِّرُ بِالطُّقُوسِ، وَتُبَرِّرُ أَنْبِيَاءَ جُدُدًا ذَوِي لُغَاتٍ قَدِيمَةٍ؛ هُنَاكَ، كَمَا تَعْلَمِينَ اليَوْمَ، نَشِيدٌ لِمِيَاهِ الِينَابِيعِ النَّاضِبَةِ، نَشِيدٌ مِنْ مَعْدَنٍ، لَهُ أَذْرِعَةٌ وَآذَانُ نِسَاءٍ، لَهُ أَثْدَاءُهُنَّ أَيْضًا؛ وَنَشِيدٌ فِي عُمْقِ السَّاحَاتِ حَيْثُ يَلْعَبُ الأَطْفَالُ أَمَامَ الشُّيُوخِ المُحَشْرَجِينَ؛ أَنْتِ تَفْهَمِينَ ذَلِكَ الآنَ، كُلُّهُ يَأْتِي مِنَ الأَرْضِ، لَكِنَّنَا نَسِينَا ذَلِكَ مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ؛ رَغْمَ أَنَّ هُنَاكَ أَيْضًا أَنَاشِيدُ تَسَّاقَطُ مِنَ السَّمَاءِ، بَاكِرًا مَعَ الصَّبَاحِ، وَتُزَحْزِحُ كُلَّ يَوْمٍ شَيْئًا فَشَيْئًا عَتَبَةَ المَنْزِلِ؛ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَسْمَعْهَا سِوَانَا، نُرَدِّدُهَا أَحْيَانًا فِي هَمْسِ وَحدَتِنَا، فِي الانْتِظَارِ؛

تَعْلَمِينَ ذَلِكَ، أَنْتِ ابْنَةُ جُوقِنَا، أَنَّنَا بَنَيْنَا مِنَ الانْتِظَارِ: الفَرَحَ وَالمُوسِيقَى، قُلْتِ؛ نَعَمْ: الفَرَحُ وَالمُوسِيقَى وَالانْتِظَارِ؛ التَّسَرُّعُ وَنَفَادُ الصَّبْرِ الأَصَمِّ، التَّهَوُّرَاتُ العَمْيَاءُ وَحَتَّى المَرَارَاتُ الوَضِيعَةِ، هَدْهَدْنَاهَا

بِنَفْسِ الإِيمَاءَةِ البَلِيدَةِ، بِإِذْعَانٍ بَائِسٍ؛ بِالتَّأْكِيدِ صَدَّقْنَا، وَتَلَوْنَا بَعْضَ الوَصْفَاتِ القَدِيمَةِ، مَعًا أَحْيَانًا، وَوَحِيدِينَ فِي أَغْلَبِ الأَحْيَانِ؛ يَحْكُونَ هَذِهِ الحِكَايَةَ هُنَا، عَنْ عَجُوزٍ دُونَ ابْنٍ وَلاَ مَنْزِلٍ، كَانَتْ تَجُوبُ المَدِينَةَ، تَنَامُ اللَّيْلَ فِي الحَدَائِقِ وَتُغَنِّي كُلَّ لَيْلَةٍ؛ يُقَالُ إِنَّهَا- قَبْلَ سَنَوَاتٍ- قَدْ تَكَهَّنَتْ بِعَوْدَةِ المَنْفِيِّينَ، بِالْتِئَامِ شَمْلِ العَائِلاَتِ، بِتَمْلِيطِ المَنَازِلِ، وَبِأَيَّامِ النَّشْوَةِ الَّتِي عَرَفَهَا حَيُّنَا عِنْدَمَا كُنْتَ أَصْغَرَ سِنًّا؛ هَلْ تَذْكُرِينَ، يُقَالُ أَيْضًا أَنَّهَا تَهَجَّتْ أَسْمَاءَ كُلِّ المَنْفِيِّينَ، وَاحِدًا وَاحِدًا، مِنْ أَعْلَى الشُّرُفَاتِ، وَأَنَّهَا وَقَّعَتْ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِمْ؛ وَأَنَّهَا- فِيمَا بَعْدُ- لَمْ تَدْخُلِ الحَفْلَ، لَكِنَّهَا- فِي مُنْتَصَفِ النَّهَارِ- رَحَلَتْ بِاتِّجَاهِ البَحْرِ، وَأَنَّهَا- بِكُلِّ هَذَا الضَّوْءِ الكَثِيفِ السَّاقِطِ عَلَى مَدِينَتِنَا- امْتَزَجَتْ هَيْئَتُهَا مَعَ الصَّخْرَةِ الَّتِي تَسُدُّ مِينَاءَنَا؛ هُنَاكَ، كَمَا تَعْلَمِينَ، تُعَاوِدُ غِنَاءَهَا كُلَّ لَيْلَةٍ، لَكِنْ بِصَوْتٍ خَافِتٍ، شِبْهِ مَكْتُومٍ، لاَ يَسْمَعُهُ سِوَى مَنْ يَذْهَبُونَ إِلَى هُنَاكَ؛

أُحِبُّ أَنْ تُشَارِكِينِي هَذِهِ الذِّكْرَيَاتِ: هُنَاكَ الكَثِيرُ مِنْهَا لاَ يَعْنِينِي، تَجْعَلُنِي أَشِيخُ، وَمَشْكُوكٌ فِي أَنَّنِي

اخْتَرَعْتُهَا؛ بِل إِنَّ البَعْضَ يَقُولُونَ اليَوْمَ أَنَّ هَذِهِ الأَسَاطِيرَ مُمِلَّة، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ نَدْفِنَهَا؛

أُحِبُّ أَنْ تَبْقَىْ هُنَا، بِجَانِبِي، شَرِيكَةً لِي، فِي ذَاكِرَةِ أُنْشُودَتِنَا، فِي سَمَاعِ الهَمَسَاتِ؛ مَعَكِ حَق، هُنَاكَ لَحْنٌ سَمَاوِيٌّ يُحَافِظُ عَلَيْهَا؛ فَلْنُرْهِفِ السَّمْعَ؛

فَرَحٌ، وَمُوسِيقَى، وَانتِظَار، وَنِهَايَة؛ تَقُولُ فَرَحٌ فِي القُلُوب، فَرَح، وَالمُوسِيقَى هُنَا، أُحِسُّ بِهَا، تَحْتَ جُفُونِي المُغْمَضَةِ، فِي البُلُّورِ الكَثِيفِ لِعَيْنَي.

جان– كلود فيلاَّن

بيبليوجـــرافيا

وُلد "جان– كلود فيلاَّن" في "ماسون" عام ١٩٤٧؛ ويعيش الآن على حافة جبال "المور"، في منزل يقع بأحد أحراش الزيتون. وانحدار الشاعر إلى الجنوب يعكس البُعد الجغرافي لمسعاه الذي لا ينتهي؛ مسعىً مادي وميتافيزيقي في آنٍ واحد. وهو يبحث عن الجنوب الأقصى من خلال الشمس، والضوء، والبحر، وحساسية الأجساد العارية على رمال الصيف؛ لكن أيضاً من خلال اقتراب أوثق من تعبيره التراجيدي: البحر المتوسط.

"، يشير "جان *Du côté des terres*في تصدير ديوانه " جوبير" إلى بُعدَي حساسية الشاعر؛ الأول، أراضي طفولته الشمالية، الباردة البليلة، الكئيبة. ولم تلبث انطباعاته عن "، أن تلاها ديوانا *Face à la mer*الجنوب في ديوانه "

". ولأن أحداً "*Le Soleil au plus près*" و"*Brève Béance*" لا يمكنه الحديث عن روح البحر المتوسط دون التفكير في اليونان، فإن ديوان "*Le Tombeau des Rois* " يمزج الأزمنة ليستحضر يونانًا راهنةً وعريقة. إنها تحفز نمطًا من الشعر يتسم بالحضور الأسطوري، بدءاً بديوان "*Roi, guerrier et mendiant*"، ليتلوه- فيما بعد- "*Et lui grand fauve aimant que l'été traverse*" و"*Leur Dit*"، و"*Sept chants de Relevailles*" و"*Le marchand d'épices* "؛ حيث تسود أشكال قصيدة النثر والنشيد.

وكشاعر للأمكنة، واصل "فيلان" مسعاه الذي بدأه في "*Lieux* " نحو أقاليم أكثر بدائية، ذات علاقة بالمجتمعات الأصلية والصحراء في "*Le schiste des songes* ". وقدم أيضاً- في "*Confins*" المسبوق بـ"*Parole, exil*" و"*Du gel sur les mains*"، بضعة أعمال- تأملاته في الحياة (و *Paroles pour un silence prochain*) والكتابة (*Ecrire au sud*) والحب (*Le pays d'où je viens s'appelle amour*). وكان هذا المزج المتناقض ظاهريا بين "*Orbes*"، ثم العلاقة الحميمة والمكان قد تحقق في البداية في "*Eté,* " اتسع فيما بعد في تأمل الصمت والكلمات المكبوتة في "*froide saison* " في شكل أقرب لقصائد "الهايكو" اليابانية. وقد ظهر مؤخراً أسلوب كتابة جديد لديه في "*Thalassa pour un retour*" و"*Dix stèles* "*Ithaques*" والأعمال التي تلته: "*Fragments du fleuve asséché* ." و"*et une brisées en un jardin*

وقد ساهم "جان-كلود فيلان"- في فرنسا والخارج- في حوالي أربعين صحيفة ومجلة (كندا، اليونان، بلجيكا، لوكسمبورج، تونس، المغرب، ليتوانيا، بلغاريا، تشيكيا، مصر، الأرجنتين)، بنشر قصائد له ومقالات وكتابات مختلفة. كما أنه قام بالعمل مع مؤلفين ومترجمين في إنجاز الترجمة الفرنسية لقصائد معاصرة من ليتوانيا ومصر وبلغاريا وإيران واليونان.

وترجم الكثير من نصوصه إلى الإيطالية والأسبانية والعربية والإنجليزية واليونانية والألمانية والرومانية والليتوانية وبعض اللغات السلافية. كما أنه مؤلف عدد من الأعمال النثرية.

لكن هذه الترجمة العربية لمختارات من أعماله الشعرية الأخيرة هي أول ترجمة عربية تصدر له في شكل كتاب.

شاعر الضوء والأساطير.....بقلم: **رفعت سلاَّم**
مقدمة الترجمة العربية.....**جان-كلود فيلان**

أناشـــيد الجُزُر.....

حكايات شعريـــة .....

صباح
زهور السوسن
موت شاعر
الرسام العجوز
التمثال الأكتع
الكاتب الأبكم
المومياء
الوحش الكامن
عيون البحر

الأناشـــيد.....

الأنشودة الأولي
الأنشودة الثانية
الأنشودة الثالثة
الأنشودة الرابعة
الأنشودة الخامسة
الأنشودة السادسة
الأنشودة السابعة

بيبليوجرافيا